الوادي الأحمر

صفحات خالدات من سيرة الإمام عز الدين القسام

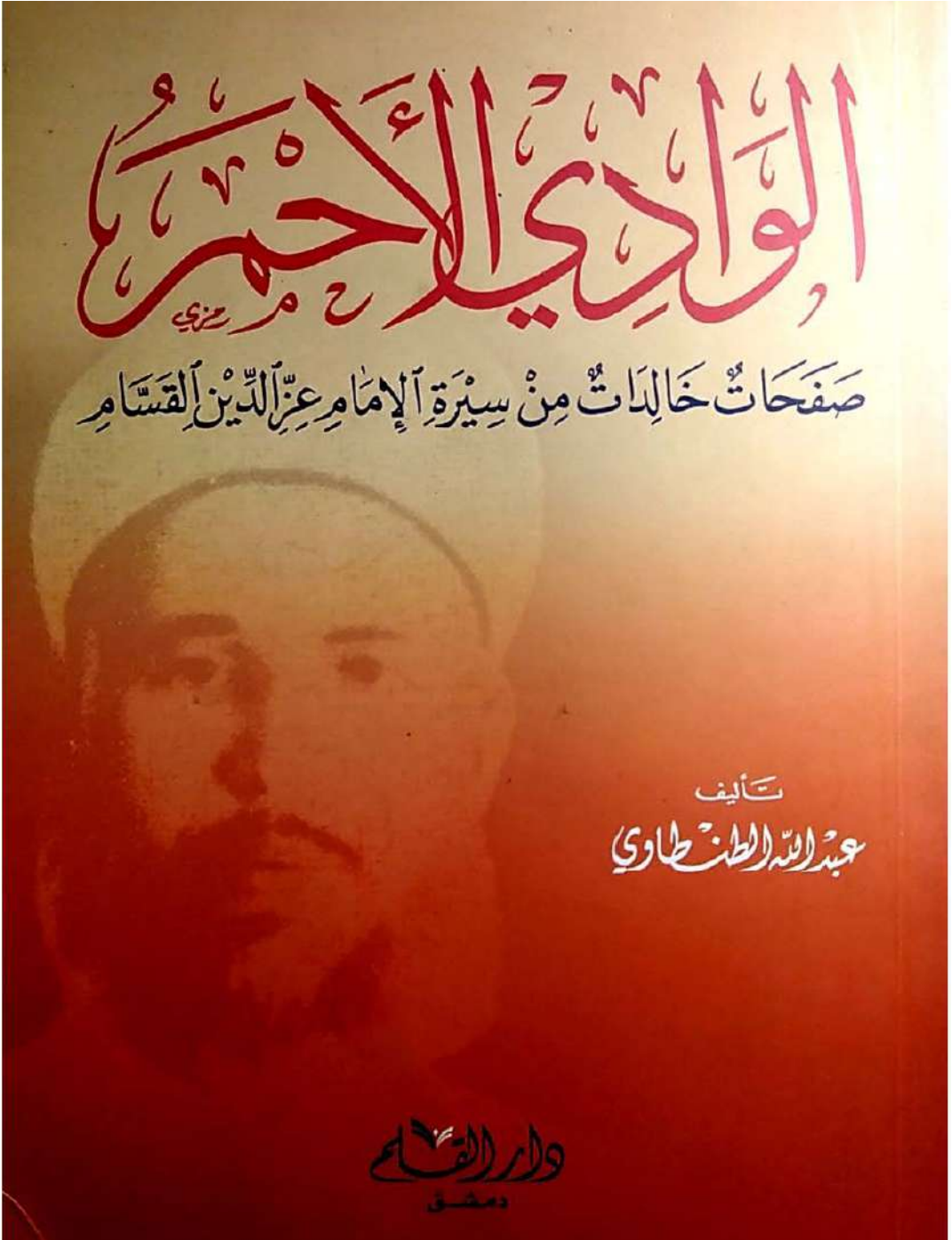

تأليف
عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

طبعة دار القلم الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

حقوق الطبع محفوظة

عندما تحرك القسام وإخوانه باتجاه (يعبد) لاحظوا متابعة الجواسيس خطواتهم، فطلب القسام من المجاهدين الانقسام إلى مجموعتين: الأولى تسير شمالاً، والثانية تسير نحو الغرب، على أن تلتقي المجموعتان في (الوادي الأحمر) بين نابلس والغور. .

محمد شراب: القسام ص٢٩٠ باختصار

الوادي الأحمر

صفحات خالدات من سيرة الإمام عز الدين القسام

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله

إلى ابنتي الحبيبة الأديبة أم العبدينِ والنورينِ:
غرناطةَ حفظها الله، وحفظَ لها زوجَها وأولادَها
ومَن تحبُّ.. خطوة على الطريق.

أبوك

إهـــدَاء

إلى شيخِ الفئةِ المجاهدةِ من أبطالِ الانتفاضةِ ـ الثورةِ، الذين آمنوا بـربِّهم، كما آمنوا بحقِّهم في تحريرِ الأرضِ المقدَّسـةِ من النهـرِ إلى البحرِ.. إلى رمزِ الجهادِ، وأعجوبةِ المجاهدينَ في هذا القرنِ.. إلى الشيخِ المجاهدِ الشهيدِ أحمد ياسين، وريثِ القسَّامِ الثائرِ على الظلمِ والظالمينَ.

عبد الله الطنطاوي

الإمام عز الدين القسام

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

غضّ الشيخ عبد القادر القسام من بصره، وهو يستقبل بعض المهنئين بمولد (وليّ العهد) عز الدين ـ كما قال له بعضهم ـ فهذا الطفل سوف يكون خليفة أبيه في (الكُتّاب) الذي يتعلّم فيه أطفال بلدة (جبلة) الواقعة على الساحل السوري، قرب مدينة اللاذقية، هذا الميناء الجميل على البحر الأبيض المتوسط.

وقال مهنّئ آخر:

ـ وسوف يكون خليفتك ـ يا شيخ عبد القادر ـ في رئاسة الطريقة القادرية أيضاً.

وقال ثالث:

ـ هذا حقّ.. فآل القسام معروفون بدينهم وتقواهم، وبأخلاقهم العالية في السهل والجبل والبحر.

فاستلم الأول الحديث، وتابع يقول:

ـ وكذلك آل نور الله . . فالحاجة حليمة أم عزّ الدين، تنتمي إلى آل نور الله، المعروفة بدينها وأخلاقها.

فقال الشيخ عبد القادر، في حياء جمّ:

ـ ولكنّ الرسول الكريم ﷺ، حذَّر أهله من أن يأتوا ـ يوم القيامة ـ بأحسابهم وأنسابهم، ويأتي المسلمون بأعمالهم.

فقال المهنِّئ الثالث، وهو ينهض للانصراف:

ـ أنتم ـ يا مولانا ـ سوف تأتون يوم القيامة بأحسابكم وبأعمالكم أيضاً.

ـ إن شاء الله . . وأنتم كذلك يا أخي.

وعندما غادر المهنِّئون بيت الشيخ، جاءته زوجته حليمة، تحمل طفلها، والبشر يملأ وجهها، وقالت:

ـ لقد كنتُ أدعو ربّي أن يجعلَ طفلَنا عزَّ الدين، كما توسَّم فيه أصدقاؤك.

فقال الشيخ عبد القادر كالمغضب:

ـ ويحك يا حليمة . . هل كنتِ تتسمَّعين علينا؟.

فقطَّبت أمُّ عزِّ الدين وهي تردُّ على زوجها:

ـ أنا أتسمَّع؟.. هل أنا في غرفة أخرى حتى أتسمَّع؟ أم كنتَ تريدني أن أحشو أذنيّ بالقطن؟!.

فأحسَّ الشيخ بالخجل، لأنه لم ينتبه، أو كأنَّه نسي أنَّ البيتَ الذي يسكن فيه مع زوجتِه، ليس إلا غرفة واحدة مستطيلة، كان قد جعلها لنومِه ولعياله وأصدقائه، ولمؤونته ومؤونة دوابّه التي كانت تبيت معهم في تلك الغرفة. ثم دارى خجله بقوله معتذراً:

ـ سامحيني يا حليمة، فقد نسيتُ أنَّكِ كنتِ معنا في الغرفة.

فتهلَّل وجه حليمة وهي تقول:

ـ لا عليك يا زوجي العزيز، فالفقرُ ليس عيباً، وسوف يُغنينا اللهُ من فضله، وتكون لنا دار بغرفتين وإسطبل للدواب، إن شاء الله.

مدَّ الشيخُ عبد القادر يديه إلى زوجته، والتقط الطفلَ منها، وضمَّه إلى صدره، وقبَّله في رأسه، ودمعتان حارَّتان تترقرقان في عينيه من شدَّةِ الفرح والانفعال، ثم قال:

ـ أكبرُ نعمة في الحياة يا حليمة.. أن يكون لنا طفل نربّيه في طاعة الله، ليكون شاباً مسلماً عالماً يعظُ الناس، ويعلّمهم الحلال والحرام.

فأمَّنت حليمة على كلام زوجها، ثم قالت له:

ـ هاتِ الولد، وخذ قلمك ودفترك، وسجّل اسم عزّ الدين، وتاريخ ميلاده.

فابتسم الشيخ عبد القادر وقال، وهو يكتب في دفتر أخرجه من عبّه:

ـ احفظي هذا التاريخ: في سنة ١٣٠٠هـ رزقنا اللهُ مولوداً اسمه عزّ الدين، وأرجو أن يجعلَه اللهُ من أبناء الإسلام، ومن العلماء العاملين.

ـ آمين يا رب العالمين.

ـ ٢ ـ

ذات مساء، جلس الزوجان يسمران ويلاعبان عزَّ الدين الذي صار صبياً ابن عشر سنين، والسعادة تغمرهما، على الرغم من الفقر الذي يعيشان في ساحته، فقد كان عزُّ الدين يبدو أكبر من سنِّه، فتى جاداً نشيطاً، وذكيّاً مجدّاً، وذا نخوةٍ وحميّة.

وسرح الشيخ عبد القادر بفكره، وصار يتخيَّل ابنه عزّ الدين وقد غدا شاباً قوياً، وعالماً فيه كل مظاهر النجابة، وانتبهت أمّ عز الدين إلى سرحان زوجها، فأعادته إلى واقعه بقولها:

ـ هيه يا شيخ.. أين وصلت؟.

فانتفض الشيخ وهو يجيب:

ـ وصلت إلى الأزهر، ولكنكِ لم تتركيني أتمّ مشواري.

نظر عز الدين إلى عيني أبيه متسائلاً:

ـ هل سترسلني إلى الأزهر يا أبي؟ .

فافتعل أبوه العبوس وهو يقول :

ـ والله يا عز الدين، لا أدري . . هل ستكون عالماً أو واحداً من (زعران) جبلة؟ .

ولما احتجَّت أمّ عز الدين على كلام زوجها، قال لها ابنها :

ـ أنا أحكي لكِ الحكاية يا أمي، فإذا كنتُ مخطئاً اعتذرت .

فسألت أمه :

ـ وهل هناك حكاية؟ .

ـ بل حكايات يا حليمة . . ابنكِ عزّ الدين صار صاحب حكايات وحكايـات . . كلّ الناس يتحدّثون عنه، فهو في كلّ يوم يتسبَّب في مشكلة .

ـ احكِ يا عز الدين . . يا أبا الحكايات والمشكلات .

قال عز الدين :

ـ عن أيّ حكاية يا أمي؟ .

قال أبوه :

ـ عن ضربك اليوم لأحمد ابن السمّاك . .

فصاحت الأم :

ـ ألم تجد غير ذلك الولد الشرّير ابن الأشرار حتى تتشاجر معه؟! .

ابتسم عزّ الدين فرحاً بما قالته أمّه، وقال :

ـ أنتِ قلتِها يا أمي وليس أنا . . شرير ابن أشرار .

ـ نعم . . شرير ابن أشرار . . هل تريد توريط أبيك معهم؟ .

ـ لا . . لا دَخْلَ لأبي . . أنا وهو صبيَّان نتقاتل ونتصالح، ولا دَخْلَ للكبار فينا .

ـ كيف؟ .

فقال الشيخ :

ـ احكِ الحكاية لأمّك أولاً يا عز الدين، وبعدها نتفاهم .

فاتَّخذ عز الدين هيئة جادّة وقال لأمّه :

ـ الولد أحمد ولد قذر، لا يعرف معنى النظافة، وهو يحبّ الاعتداء على أولاد الكُتَّاب . . نصحتُه أكثر من مرّة فلم ينتَصِحْ، فما كان مني اليوم إلا أن أؤدّبه .

قال الشيخ :

ـ احكِ لأمّك كيف أدَّبْتَه؟ ولماذا أدّبْتَه؟ .

ـ باختصار، يا أمي، هذا الولد لا يترك أحداً من شرّه. . إذا رأى بيد واحد من الأولاد خبزاً أو سندويشة أو سكّرة أو بزراً، فإنّه يهجم عليه، ويأخذ منه ما في يده. . في البداية قلنا: أحمد ولد فقير، وربما يكون جوعان، ولكنّه تمادى. .

ـ كيف تمادى يا بني؟.

أجاب عز الدين:

ـ في هذا اليوم، كان مع ابن جيراننا مصطفى سندويشة يأكلها، وكنا نقف معه نتحدّث ونضحك، فانقضَّ أحمد على مصطفى، وانتزع منه السندويشة، وهرب، فلحقتُ به، وصوتُ مصطفى يلاحقه بالسبّ والشتم، وعندما أمسكتُ أحمد، ورأى أنّي سآخذ السندويشة منه رماها على الأرض، وداس عليها بقدمه الوسخة الحافية، وهو يقول بحدّة: هه. . هه. . هه. . فضربته.

قال الشيخ:

ـ ضربته فقط يا عز الدين؟.

وقالت الأمّ:

ـ يستحق السحق لا الضرب فقط.

فعلّق الشيخ، وهو يواري سروره خلف عبوس مفتعل:

ـ إذن أنتِ تعلّمينه؟ .

ـ نعم . . مثل هذا الشقي يجب أن يُكسر ويُقهر ، حتى لا يعود لمثلها .

ـ مع أنَّ عزّ الدين كان يدافع عنه في المرة السابقة . . وقف معه ضدَّ مصطفى .

أجاب عز الدين :

ـ هذا لأنه كان المعتدي .

فسألته الأم :

ـ مَن الذي كان المعتدي يا عز الدين؟ .

ـ مصطفى يا أمي . . مصطفى اعتدى على أحمد، فوقفتُ إلى جانب الحق .

فابتسمت أمّه في رضا وهي تقول :

ـ بارك الله فيك يا ولدي . . وقفتَ مع الحقّ ، وليس مع أحمد . .

ـ هو دائماً يزعم أنه يقف مع الحق .

فسأل عزُّ الدين :

ـ هل تذكر لنا ، يا والدي ، مشكلة واحدة كنتُ فيها ضدّ الحق؟ .

فقال الشيخ في سعادة وارتياح :

ـ لا يا عز الدين . . أنت دائماً كنتَ مع الحق . . وأرجو أن تبقى مع الحق ، مهما كلَّفكَ هذا من ثمن .

فقال عز الدين :

ـ إذا أردتَني ، يا أبي ، أن أكون كذلك ، فأرسلني إلى الأزهر .

ـ حتى تقاتل الناس ؟ .

ـ بل حتى أتعلَّم الحق ، وأكون إلى جانب أصحاب الحق من المظلومين .

فما تمالكت الأمّ نفسَها ، فمدَّت يدها ، وسحبت الصبيّ إليها ، وضمَّته إلى صدرها في حنانٍ بالغ ، وهي تقول :

ـ سوف يرسلك أبوك إلى الأزهر يا عز الدين ، ولو بعنا الذي تحتنا والذي فوقنا .

فقال الشيخ :

ـ إن شاء الله . . قولي : إن شاء الله يا حليمة .

ـ إن شاء الله .

وقال عز الدين :

ـ وأنا سوف أوفّر من عملي ما يساعدني على السفر إن شاء الله .

فتنهَّدت أمّه وهي تقول:

ـ أنت تساعد أباك في العمل منذ سنتين، فهل وفّرت شيئاً حتى توفّر الآن؟.

فغمزها الشيخ عبد القادر بعينه ثم قال:

ـ كان عزّ الدين طفلاً، أمّا الآن فقد صار رجلاً بكلّ معنى الكلمة.

والتفت نحو عز الدين وسأله:

ـ أليس كذلك يا بني؟.

فأجاب عز الدين وهو يغضي حياء:

ـ إن شاء الله يا أبي.

ـ ٣ ـ

كان عز الدين في الرابعة عشرة من العمر، عندما استقلَّ قارب صيد من جزيرة (أرواد) القريبة من جبلة، بينما كان أبوه يقف على الرصيف، ومسح كلٌّ منهما دمعاتٍ فرَّت من عينيه، وهو يودّع صاحبه، وقد حاول الشيخ عبد القادر أن يتجلَّد أمام ابنه، وهو يوصي صاحب القارب بإيصاله إلى الإسكندرية، ولكنَّ العواطف التي كانت تعصِفُ به، ما كانت لتَخْفى على عزّ الدين الذكيّ الفطن، فقال لأبيه في هدوئه المعهود فيه:

ـ اطمئنّ يا أبي، فإنَّ ابنكَ لم يعد طفلاً، وستقرُّ به عينك وعين أمّي إن شاء الله.

وقال الشيخ عبد القادر بصعوبة:

ـ هذا هو الأمل فيك يا عز الدين.

وسكت لحظة ليستردَّ قواه التي كادت تنهار في تلك الساعة ثم قال:

ـ أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك يا بني..

وبقيت هذه الكلمات ترنّ في أذني عز الدين، حتى غطَّت على صوت الموج الذي كان القاربُ يشقّه، حتى غابت أرواد بما فيها عن ناظريه..

عندئذٍ جلس عز الدين في الزاوية الخلفية من القارب، وسرح ببصره نحو الأفق البعيد، وسرح بخياله نحو أمّه وأبيه، وتذكّر وداع أمّه، وكيف أنها كانت تهتزّ وتختلج وهي تشمّه وتضمّه وتقبّله، ودموعها تغسل خدّيها، وتذكّر الملاعب التي غادرها في وقتٍ مبكر، ليكون عوناً لأبيه في تحصيل لقمة العيش، تذكّر صديقيه الحميمين: محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد، ولكنَّه ما دار في خلده ما يمكن للأقدار أن تخبّئه له ولأصدقائه في قابل الأيام.

وعندما انتهى به المطاف إلى الأزهر، وسأل عن رواق الشوام،

تنفَّس الصعداء، وقال لنفسه: كن رجلاً يا عز الدين. . أنت ابن أربع عشرة سنة يا عز الدين. . أنت لم تعد طفلاً كما زعمت لأبيك لحظة وداعك. . لقد وعدتَ أباك أن تكون قرّة عين له ولأمّك ولأهلك، فأهلكَ في انتظارك. . لقد باعوا ما كانوا في حاجة إليه، من أجل تحقيق ما تصبو إليه وتأمله، وأرسلوكَ إلى الجامع الأزهر، لتعودَ إليهم عالماً، تعلِّم الناسَ أمور دينهم، وترشدهم إلى الحلال والحرام، وتبيّن لهم الطريق إلى الجنة، فقد عمَّ الجهل كما عمَّ الفقر، والذين يفكّون الخط في جبلة وفي بانياس وطرطوس، بل وفي اللاذقية، معدودون، كما أنَّ الذين يأكلون ثلاث وجبات في اليوم قِلّة قليلة، وأهلك منهم يا عزّ الدين. . ثم إنَّ البلاد في حاجة إليك، في حاجة إلى أبنائها المتعلّمين الواعين، ويجب أن تكونَ واحداً منهم. .

كانت هذه الأفكار وأمثالها تنثال على بال التلميذ النجيب عز الدين، وهو مقبلٌ على حلقات العلم، وعندما يأوي إلى فراشه، كانت حدّة الصراع النفسي تشتدّ عليه، فهو إنما جاء إلى الأزهر ليحصل على العلم الشرعي، وبناءً على ذلك، كان يتنقّل بين حلقات مشايخ الأزهر، ويعبّ مما عندهم من صنوف العلوم الشرعية والعلوم العربية، بين فقهٍ وأصولِ فقه، وحديث، ومصطلح علم الحديث، وتفسير القرآن العظيم، وعلم الفرائض، والنحو والصرف والخطابة والأدب والتاريخ، وما إلى ذلك من علوم أسَرَتْه، فانطلقَ يعبّ منها ما وسعه ذلك.

وكان مشايخ الأزهر الذين يدرّسون هذه العلوم، متبحّرين فيها، فعشقَ العلم والعلماء معاً، وصار يلاحقهم من رواق إلى رواق، يسألهم فيما يُشكل عليه من المسائل، ويستفتيهم في كثيرٍ من القضايا التي تلحّ عليه، وتداعب رأسه الصغير، وتتلاعب بأعصابه المستوفزة، وكان يجد من أولئك العلماء صدوراً حانية، وقلوباً كبيرة، قبل أن تتحدَّث إليه رؤوسهم المترعة بألوان العلوم..

كان الصراع النفسي يزداد حدَّة في رأس عز الدين، فيضطرب قلبه، ويغلي، وهو ينتقل مع مشايخه من العلوم، إلى الحياة العامة في مصر، والحياة في سائر أقطار العروبة والإسلام.. فمصر ترزح تحت نير الاستعمار الإنكليزي، والإنكليز خبثاء، ملاعين، وكفار، جاؤوا إلى مصر بأفكارهم المنحرفة، وأخلاقهم البعيدة عن أخلاق الإسلام ومبادئه وتعاليمه، كما جاؤوا بأساطيلهم، وجنودهم، ومدافعهم.. إنهم يفسدون أخلاق الناس، ويثيرون المشكلات، ويمتصُّون خيرات مصر، ويضطهدون الشعب المصري، ويغزونه بأفكارهم وآدابهم وفنونهم ومسارحهم، ويغرون الشباب بها، ويحاولون التأثير على الطبقة المتعلّمة، بما جلبوه من أنماط حضارتهم الغربية المادية، وبما يثيرونه من شكوك في الشريعة الإسلامية.

كان التلميذ عز الدين يشاهد ويسمع الكثير عن مباذل الإنكليز، وانحرافات المتأثرين بهم وبفنونهم وعلمائهم، فيأسى لحال المسلمين،

ويحاول الحصول على الحلول المناسبة، فلا يجدها إلا في تلك التعاليم الثائرة التي يتناقلها المشايخ الصغار عن العالم الثائر المجاهد، جمال الدين الأفغاني، ومن بعده تلميذه الشيخ محمد عبده. . فأكبَّ عز الدين على تلك التعاليم، يحفظها ويفهمها، فتثور نفسه، ويحدّث بعض زملائه بثورة نفسه، فيأخذه هؤلاء إلى بعض بيوت الحيّ، حيث يلتقي بعض الوطنيين وبعض العلماء الثائرين، يتدارسون طرق الخلاص من هذا الوباء الإنكليزي، وكان كلّ واحد يدلي بدلوه، ويقدّم بعض الآراء والمقترحات، وكان أكثرها ينصبّ على أمر واحد، على أن الإسلام هو الحلّ الوحيد، وليس من طريق آخر. . .

وعزّ الدين يتشرّب تلك الأفكار الثائرة، ويختزنها في أعماقه التي كانت تغلي كالمرجل، فيكزّ على أسنانه، يشدّ قبضة يمينه، ويذكر ما فعله الشيخ سليمان الحلبي، طالب العلم الأزهري، الذي جاء من حلب، ومرَّ بغزّة، والتقى بعض علمائها العاملين المجاهدين، وتزوَّد منهم زاداً روحياً ثائراً على الفرنسيين، الذين جاؤوا إلى مصر، وقهروا علماءها، وأذلّوا شعبها، ونهبوا خيراتها، فتآمر الشيخ سليمان الحلبي، مع علماء غزة، وعاد إلى القاهرة، وإلى الأزهر، ثم استخار الله وأقدم على قتل (كليبر) قائد الفرنسيين.

تذكّر الشيخ الصغير عزّ الدين ما فعله ابن (بلدياته) السوريّ الحلبيّ سليمان، وقال في نفسه: لماذا لا أكون مثل سليمان؟!. . الشيخ سليمان ما كان يكبرني إلا ببضع سنوات، عندما ألقى روح القائد

الفرنسي في قاع الجحيم، وبإمكاني أنا أن أكون مثله، وما ينبغي أن يكون أجرأ مني أو أشجع.

وأعرب عز الدين عما يصطرع في نفسه من أفكار ثائرة، لزميله التلميذ السوري عز الدين التنوخي، فقال له كالمختبِر، وكمن يريد أن يستوثق من سلامة الطريق:

ـ اسمع يا شيخ عز الدين، نحن هنا للعلم ومن أجل العلم...

فقاطعه القسام بقوله:

ـ وسليمان الحلبي، ألم يأتِ من حلب لأجل العلم، كما جئنا نحن من جبلة ومن دمشق؟!.

فأجابه التنوخي:

ـ أهلنا فقراء، ولم يبقَ عندنا ما ننفق منه، والأولى بنا أن نفكّر في الطريقة التي نكسب منها لقمتنا الحلال.

نفخ القسام شواظاً من نار كانت تعتمل بها نفسه، ثم قال:

ـ كما قال الشاعر، ولكن بالمقلوب: أذكرتَني الطعنَ وقد كنتُ ناسياً.

وقال التنوخي:

ـ بل أذكَرْتُكَ ما نحن فيه من فقر وبؤس وتعاسة.

فصرخ القسام:

ـ يكفي... يكفي... هل تريد أن تنعانا لأنفسنا قبل أن نموت؟!.

وأراد التنوخي أن يردّ على زميله القسام، ولكنه تذكّر الحالة النفسية الثائرة التي تكتنفه، فرثى لحاله، وكظم غيظه، وقال بهدوء:

ـ لا بأس يا أخي يا عز الدين.. لا بأس...

فهدّأ عز الدين من روعه، ونظر إلى التنوخي بحبّ، وقال معتذراً:

ـ اعذرني يا عزّ الدين يا أخي، فقد أسرفتُ في تخيّلاتي، ونسيتُ أمور معاشنا.

ـ فماذا تقترح؟.

قال القسام، والفرح ظاهر على قسمات وجهه:

ـ وجدتُها يا عز الدين.. وجدتُها..

فتساءل عز الدين التنوخي:

ـ ماذا وجدت يا عز الدين القسام؟ ماذا وجدت؟.

ـ الهريسة.

ـ أيُّ هريسة؟.

قال القسام :

ـ سنعمل هريسة، ونبيعها، ونعيش مما نكسبه منها .

فاربدَّ وجه التنوخي وقال :

ـ لا يا عز الدين . . أنا لا أعرف كيف تُصنع الهريسة، ولا أريد أن أكون بيّاع هريسة .

ـ أنا أعرف . . وأنا أريد .

ـ وأنا لا أستطيع أن أقف لأنادي عليها .

ـ أنا أنادي عليها .

فتساءل التنوخي في ألم :

ـ كيف؟ هل جُننت؟ .

ـ لماذا؟ .

ـ ماذا سيقول عنا المشايخ؟ .

قال القسام بهدوء وابتسام رضيّ :

ـ سوف يباركون لنا عملنا، ثم يشترون منّا .

ـ لا . . لا . . أنا أخجل .

ـ أنت قف إلى جانبي خلف (صدر الهريسة) وسوف ترى .

وخطر للتنوخي خاطر شيطانيّ، ظنَّ أنَّه يستطيع به أن يصرف القسام عن هذا العمل المخجل، فقال له:

ـ والثورة؟ وسليمان الحلبي؟ والإنجيلز؟ والشيخ محمد عبده؟ وبيوت الوطنيين الثائرين؟ وبيوت العلماء المجاهدين؟!.

فقاطعه القسام بقوله:

ـ حسبُك يا عزّ الدين، فلا تعارُضَ بين هذه وتلك..

ـ كيف؟.

ـ ألا ترى التجار الثائرين على الإنكليز والظلم يعملون في دكاكينهم؟.

ـ بلى.

ـ ألا ترى المشايخ الثائرين على الإنكليز والحكام يكسبون رزقهم من دروسهم؟.

ـ بلى.

ـ ونحن كذلك.. سوف نعمل ونتعلّم ونبقى ثائرين على الظلم والظالمين... فهل ترى في هذا ما يعارض ذاك؟.

فأطرق التنوخي وقال له:

ـ غلبتني يا عز الدين.

فأشرق وجه القسام وهو يقول:

ـ سنبدأ عملنا من الغد إن شاء الله.

ـ إن شاء الله.

ـ وسنكسب رزقنا بعرق جبيننا.

ـ إن شاء الله.

ـ وسوف نتابع العلم، ونرتاد حلقات التعليم، ونلاحق المشايخ، وندرس تاريخ الثورات، ونستفيد من الدروس والتوجيهات السرّيَّة في الزوايا والتكايا، وفي منازل العلماء في حيّ (الغورية) وفي بيوت الوطنيين من التجّار والسياسيين.

ـ إن شاء الله.

ـ اتفقنا؟.

ـ اتفقنا.

فرفع القسام يديه وقال:

ـ لنقرأ الفاتحة على نية التوفيق والتسديد والنجاح.

فقال التنوخي، وهو يرفع كفيه:

ـ نقرأ الفاتحة، بسم الله الرحمن الرحيم...

- ٤ -

قال التنوخيّ للقسام، بعد أن سلّم من صلاة العشاء:

- هناك شيخ جليل من تلاميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني، يلقي درساً على طلاب العلم، ما رأيك في حضوره؟.

فتساءل القسام:

- أين مكان الدرس؟ ومن الشيخ؟.

فهمس التنوخي:

- قم بنا.

ونهض الشيخان الصغيران، وتسللا من الجامع الأزهر تحت جنح الظلام، ويمّما شطر بيت في جوف حي (الغورية) الشعبي.

وعندما استقرّ بهما المقام ضمن الحلقة الصغيرة، شاهدا شيخاً معمّماً، صغير الحجم متّقد العينين، حادّ النظرات، ضخم الرأس، قد أمسك بيده اليمنى بعض الأوراق، كان يجيل عينيه فيها، ثم يجيلهما في الحاضرين، وهو يقول:

- أنرضى، ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تُضرَب علينا الذلّة والمسكنة؟! أو أن يستبدَّ في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذْهَبنا، ولا يَرِدُ مَشْربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يَرْقُبُ فينا إلاً

ولا ذمّة؟ بل أكبر همّه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يُخْلي منّا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناءَ جلْدَتِه؟!.

إنَّ هذا الإنكليزي المستعمر، ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء، إنه صوتٌ عالٍ وشيخٌ بالٍ.. إنه كالدودة الوحيدة، على ضعفها تفسد الصحة، وتدمّر البنية..

ثم رفع الشيخ صوته الحادّ، كأنَّه مُنْذِرُ جيش وقال:

ـ إلا أنه لا توجد نفس تشعرُ بوجود الحكومة الإنكليزية على سطح الأرض إلا وقد مسَّها منهم شيء من الضرّ... ولكنها نفوس تأبى إلا أن تكون ضعيفة أمام أوباش الإنكليز... إنها تنتظر من يدافع عنها، ويعمل على تحريرها من نير الاستعمار، ويطرد الإنكليز من ديارها... فيا ويل مئات الملايين من الهنود والمصريين الرازحين تحت ذلك النير الإنكليزيّ في ذلٍّ وقهرٍ واستكانة وعبودية... يا ويل العاجزين.

وعندما انتهى الدرس، وانفضَّ الناس، وأوى الطالبان الشاميان إلى غرفتهما، قال القسام في إعجاب:

ـ ياه.. ما هذا الشيخ؟! وما هذه الكلمات الناريّة التي يريد بها إحراق أخضر الإنكليز ويابسهم؟!.

فقال عز الدين التنوخي:

ـ تلك كلمات الأفغاني وتعاليمه.

ـ هل صحيح أن الخديوي نفاه من مصر؟ .

ـ نعم. . . بحجة أنَّ الأفغاني شكَّل جمعية سريّة فاسدة، وفي أعضائها شبّان فاسدون .

ـ مثل مَن؟ .

ـ مثل الشيخ محمد عبده، وهذا الشيخ الذي استمعتَ لدرسه اليوم، وعشرات، بل مئات من أمثال هذين الشيخين الأزهريين .

فقال عز الدين القسّام الطالب الطامح للتحرير والتغيير :

ـ أتمنَّى أن أكون من أعضاء تلك الجمعية، ومن تلاميذ الشيخ الأفغاني، والشيخ محمد عبده .

فقال التنوخي الذي يكبر القسام بسنوات :

ـ كلام الخديوي كذب. . ليست هناك جمعية سريّة ولا ما يحزنون . . إنه لفَّقَ هذه التهمة، ليطرد الأفغاني من مصر .

فسأل القسام :

ـ ولماذا يطرده من مصر؟ .

أجاب التنوخي :

ـ لأنه يخشى أن يثير الشعب عليه، فتلاميذ الأفغاني كثر، وهم موزَّعون في المدن والقرى، وينقلون للناس تعاليمه وأفكاره الثائرة . .

وسكت التنوخي لحظة، ثم أخرج من بين أوراقه قصاصة ورق وقال:

ـ اسمع يا شيخ عز الدين ما قاله أحد تلاميذ الأفغاني في خطبة الجمعة. . بعد أن تحدَّث عن الوطنية، والإخلاص للوطن، وربط بين هذا وبين طاعة الله، وتعاليم الإسلام في حبّ الأوطان، والمحافظة عليها، قال الشيخ ناقلاً عن الشيخ الأفغاني قوله:

«لسنا نعني بالخائن مَن يبيع بلاده بالنقود، ويسلّمها للعدو بثمن بخس، أو بغير بخس، وكلُّ ثمن تباع به البلاد فهو بخس، بل خائن الوطن، من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدماً لعدوٍّ تستقرّ على أرض الوطن، وهو قادر على زلزلتها».

فهتف القسام:

ـ الله أكبر. . ما هذا التعريف الرائع لخائن الوطن؟!.

يا ليتني كنت في مصر، عندما كان الأفغاني في مصر!.

قال التنوخيّ، وهو يعيد الورقة التي قرأ منها كلمات الأفغاني إلى مكانها:

ـ على أيّ حال، إذا فاتنا مشاهدة الشيخ الأفغاني، فلن تفوتنا كلماته.

قال القسام:

ـ هل عندك من كلمات الأفغاني ما يبلّ الصّدى؟ .

ـ طبعاً عندي . . كلّ طلاب الأزهر يحتفظون بمثل أوراقي هذه .

فسأل القسام وهو يشير إلى أوراق عز الدين التنوخي :

ـ هل هذه الأوراق تحتوي على كلمات الأفغاني؟ .

ـ وغير الأفغاني، مثل الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، وغيرهما .

قال القسام :

ـ أرجو ألاّ تبخل عليَّ بها .

ـ إن شئت، فأخرجْ دفترك وقلمك، وانقُلها، أو انقل منها ما شئت .

ـ بل سأنقلها كلها بإذن الله .

وأخرج القسام بعض أوراقه، وكتب فيما كتب :

«إنَّ مقاومة الأهالي، أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة في أماكنَ مخصوصةٍ، تحت قيادة رؤساء معينين، تنهزم بانهزامهم، وما جرى لحكومة إنكلترة مع الأفغانيين، أعظمُ شاهد على ما نقول، دخلت الحكومة الإنكليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكريّ، واستولت على المدن، وكادت قدمها ترسخ في البلاد، فلما

قام الأهالي في كلّ صُقْع، والتحم المقاتلون في جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرَّت حكومة إنكلترة، بعد تسلّطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني، إلى ترك البلاد. . . ».

توقَّف القسام عن الكتابة، ورفع رأسه عن أوراقه، وقال محدّثاً نفسه:

ـ يحق للإنكليز أن يأمروا الخديوي بطرد هذا الشيخ المجاهد.

سمع التنوخيُّ بعض هذه الكلمات، فسأل:

ـ هل تتحدَّث معي أو مع نفسك يا عزّ الدين؟.

قال القسام:

ـ بل أتحدّث مع الحقيقة. .

ثم تابع الكتابة:

«إنَّ على المصريين أن يقتدوا بالأفغانيين، لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب. . وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق، والدفاع عن الدين والوطن، كما يظنّ بعض المتطفّلين على موائد السياسة. . إننا ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوّه من أحشائه، وهي سنّة جرى عليها دعاة الحقّ في كلّ أمة. . . وعلى المصريين عموماً، والفلاحين

خصوصاً، أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة الإنكليزية كلَّ ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد، قائلين: لا نطيع إلا حاكماً وطنياً.. فإن فعلوا هذا، وجدوا لهم من الدول أنصاراً، بل ومن الجنس الإنكليزيّ نفسه».

صاح القسام:

ـ هل قرأتَ ما سبق لك أن كتبتَه بخطّك يا عزّ الدين؟.

فسأل التنوخيّ:

ـ ولماذا هذا السؤال يا عزّ الدين؟.

فقال القسام:

ـ تراه تحصيل حاصل.. أليس كذلك؟.

أجاب التنوخي في ابتسام:

ـ وأنت؛ ألا تراه تحصيل حاصل؟.

ـ لا.. ليس تحصيل حاصل.. لو كنتَ قرأتَه وأدركتَ مراميَه، لكنتَ تطير في حَوْصَلَةِ طيرٍ أخضر..

فقال التنوخي:

ـ هوّن عليك يا شيخ عز الدين يا قسّام.. فلو كانت كلُّ كلمة نقرؤها، أو نسمعُها، تطير بنا في حواصل طير خضر، لما بقي عالم في مصر على الأقل.

ـ وهو كذلك . . هذه الكلمات المقاتلة تدعونا إلى ذلك . .

قال التنوخيّ :

ـ إذن هيّئ نفسك لزيارة تاجر في دكانه .

فسأل القسام في استنكار :

ـ ما هذا يا عزّ الدين؟ ماذا نفعل في دكان التاجر؟ .

ـ نتسوّق بضاعة جديدة .

ـ غير الهريسة؟ .

ـ أيّ هريسة يا مسكين . . بضاعة من التي بين يديك .

ـ من الدكان؟ .

ـ نعم . . فهذا التاجر الذي سنزوره مساء الغد إن شاء الله، ليس كسائر التجار، إنه من تلاميذ الشيخ الأفغاني، والشيخ محمد عبده .

ولم يصدق القسام ما سمعه من زميله التنوخيّ، حتى وجد نفسه يدلف إلى ذلك الدكان، ويرى جمعاً آخر من طلبة العلم والتجار، يتربّعون أمام تاجر كهل، يطفح النور من وجهه، وتشعّ عيناه بالثورة والذكاء .

كان الشيخ التاجر يتحدَّث عن جهاد الكفار والمنافقين والسائرين في ركابهم، ثم أنحى باللائمة على المشايخ وطلاب العلم، لأنهم لا

يقومون بواجبهم في تثقيف الناس وتوعيتهم، وبيان أخطار الاستعمار الإنكليزي على الإسلام والمسلمين وعلى الأزهر بالذات، وقال موجّهاً كلامه إلى المشايخ وطلاب العلم الشرعيّ:

ـ اسمعوا يا مشايخ الأزهر، ويا طلاب الأزهر، اسمعوا وصية الحافظ الخطيب البغدادي، في مقدّمة كتابه البديع: (اقتضاء العلم العمل). إنه يقول:

«ثم إنّي مُوْصيك يا طالب العلم بإخلاص النيّة في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلمَ شجرة، والعمل ثمرة...».

ورفع الشيخ التاجر عينيه عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه، وتفرّس في وجوه الحاضرين، حتى وقعت عيناه على عيني القسام، فقال:

ـ ماذا؟ العلم شجرة، والعمل ثمرة.. هل تفهم أيها الشيخ الشامي؟.

فبُهت عز الدين القسام ودُهش، وقال:

ـ نعم يا مولانا..

فتابع الشيخ التاجر قراءته في الكتاب:

«فإنَّ العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعَدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، وقيل: العلم والد، والعمل مولود..».

هل تفهم أيّها الشيخ الشامي؟.

قال القسام في استسلام المأخوذ:

ـ أفهم يا مولانا.. أفهم.

فقال التاجر الشيخ:

ـ إذن.. فاسمعْ ما يقول الخطيب البغداديُّ في كتابه القيّم:

فتابع القسام كلامه بلا وعي:

ـ اقتضاء العلم العمل.

فقال التاجر الشيخ:

ـ أحسنتَ أيها الشيخ الشامي.. قال الخطيب البغداديُّ:

«والعلمُ يُراد للعمل، كما العمل يُراد للنجاة.. والعلم خادمُ العمل، و العمل غايةُ العلم، فلولا العملُ لم يُطلَبْ علم، ولولا العلم لم يُطلب عمل، ولأنْ أدعَ الحقَّ جهلاً به، أحبُّ إليّ من أن أدعه زهداً فيه.

وهل وصل الحكماء إلى السعادة العظمى، إلا بالتشمير في السعي، والرضا بالميسور، وبذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟.

وهل جامعُ كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب؟.

وهل المنهوم بها، إلا كالحريص الجشع عليهما؟.

وهل المُغْرَم بحبِّها، إلا ككانزهما؟.

ولا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، وكذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها، وراعى واجباتها، فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقتَه، فإنَّ الثَّواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، واللهُ تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد، فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره».

رفع الشيخ التاجر رأسه عن الكتاب، وأجال نظره في المشايخ وطلاب العلم، ثم نظر إلى من حضر من التجار، وقال:

ـ كلام الخطيب البغداديّ موجَّهٌ إليكم جميعاً، إلى المشايخ وإلى التجار جميعاً، فالشيخ ينفق من بضاعته للشعب، لكل أبناء الشعب، والتاجر ينفق من بضاعته.. من أمواله التي اكتنزها، والكنز غير جائز للعالم وللتاجر على حدّ سواء، والمحتكر ملعون.. اسمعوا ما قاله الشيخ الأفغاني في هذا المقام.. قال:

«إنّه ما أقعد الهمم عن النهوض، إلا أولئك المترفون الذين يحرصون على طيب المطعم، ولين المضجع، والتطاول في البنيان.. أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالاً».

والتفت الشيخ إلى القسام وقال:

ـ أليس كذلك أيها الشيخ الشامي؟.

فردَّ القسام في ذهول:

ـ بلى يا سيدي . .

فقال التاجر الشيخ :

ـ اسمعوا يا مشايخ ما قاله الأفغاني معلّقاً على كلام الصوفيين الداعين إلى الفناء في الله . . قال :

«أنا لا أفهم معنى لقولهم : الفناء في الله ، وإنما الفناء في خلق الله . ومعنى الفناء في خلق الله : تعليمهم ، وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم ، وما فيه خيرهم» . هل بلّغت؟ .

فجاء الردُّ من الحاضرين :

ـ نعم .

فقال :

ـ اللهمَّ اشهد .

ـ ٥ ـ

بعد ثماني سنوات من التعليم في الأزهر الشريف ، عاد الشيخ عز الدين القسام إلى بلدته (جبلة) شيخاً معمَّماً ، ورجلاً ناضجاً ، وشاباً أنيقاً وسيماً ، يخفي خلف أناقته ووسامته نفساً ثائرة ، وروحاً مضطرمة . . ويحمل في رأسه المعمَّم أحلاماً طوالاً عراضاً في انتشال أبناء شعبه وأمته من وهدات الجهل والفقر والتخلّف التي تردَّوا فيها . . الجهل بهذا

الإسلام العظيم الذي هو دين الحق والعدل والحرية والمساواة والإنصاف، هذا الدين الذي يأبى الظلم، ويرفض الظالمين، وينفيهم من مجتمعاته الفاضلة التي تقوم على إنصاف الفقراء والمظلومين والمعذّبين في الأرض..

وفرحت أسرة القسام بعودة ابنها الشيخ عز الدين، وجاءت وفود المهنّئين للسلام عليه، والمباركة لأهله بعودته شيخاً ملْءَ السمع والبصر، وكان الشيخ عبد القادر ـ أبو عز الدين ـ يحمد الله تعالى على ما أنعم عليه بهذا الولد البارّ الناشئ في طاعة الله، ولكنّ همّاً كان يقلقه، ثم أراد أن يتخلّص من وطأته على نفسه، فقال لولده الشيخ عز الدين:

ـ ألا تذهب يا بنيَّ للسلام على أفندينا؟.

فابتسم الشيخ عز الدين ابتسامة عذبة، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الكلمات التي أثارت عجب الوالد:

ـ غريب يا أبي.. هل يسلّم الوافد على المقيم؟.

وقالت أمُّ عز الدين:

ـ كلام ابني صحيح.. المقيم يأتي ويسلّم على القادم من سفر، مثل كلّ البشر..

فزوى الشيخ عبد القادر ما بين عينيه، ثم قال محتجّاً:

ـ ولكنّه أفندي جبلة يا أمّ عز الدين!!.

فقال عزّ الدين، وكلمات الأفغانيّ ترنُّ في أذنيه، حول المترفين ودورهم المخزي:

ـ وإن يكن.

فتساءل الشيخ عبد القادر عمّا إذا كان هذا التصرّف سليماً مع أصحاب الشأن والأمر والنهي، وهل سينجو الشيخ عز الدين من غضبهم، فأجاب الشيخ عز الدين والده:

ـ اطمئن يا أبي.. لن يكون الأفندي أقوى مني ومن علمي.. فقد عدت أحمل سلاح العلم، لأشهره في وجوه الظالمين، أيّاً كانوا..

ـ ولكنّهم أقوياء، ونحن ضعفاء يا عزّ الدين.

قال عز الدين وشموخ الإسلام يملأ نفسه عزّة وقوة:

ـ لا تقل هـذا يا أبي. لا تقل نحن ضعفـاء. فنحن أقويـاء بهذا العلم.. ولا تقل إننا فقراء، فنحن أغنياء بديننا وأخلاقنا وكرامتنا.. أنا لا أريد أن أتحدّاه، ولا أتحدّى غيره.. لا أريد أن أبدأ حياتي بالتصدّي للأفندي وغيره، ولكنّ الأصول أصول.. الماشي يسلّم على الجالس، والراكب يسلّم على الماشي، والمقيم يسلّم على الوافد، والقليل يسلّم على الكثير، هذه هي الأصول التي تعلّمناها، وكان على الأفندي أن يتعلّمها ويعمل بها قبل أن يصير أفنديّاً.. نحن لم نخطئ حتى نخاف.. ولم نقصّر حتى نخجل.. الأفندي قصّر، وعليه أن يخجل من تقصيره.

فانشرح صدر الشيخ عبد القادر لكلام ابنه، قال له:

ـ على بركة الله يا ولدي.

وقالت الأمّ التي كانت تصغي إلى ولدها في إعجاب:

ـ الله يحميك ويحفظك يا ولدي وفلذة كبدي، يا عز الدين.

وقال الوالد:

ـ ومع ذلك.. كن حذراً يا بنيّ، ولا تتكلّم بسوء عن الأفندي.

فقال عز الدين:

ـ ما لي وللأفندي ولغير الأفندي؟ لقد علّمنا رسولُنا ونبيّنا الكريم محمد ﷺ كيف نتصرّف فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»، وأنا ممن يؤمنون بالله واليوم الآخر والحمد لله.

قالت الأم:

ـ إذا زارنا فيا أهلاً وسهلاً، وإذا لم يزرنا، فمع السلامة.

ـ مع ألف حمل سلامة.

ـ صدقت يا ولدي.. مع ألف حمل سلامة..

فرفع الشيخ عزّ الدين يديه، وشخص ببصره نحو السماء، ودعا:

ـ اللهمّ إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من العجز

والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال.

فأمَّن الشيخ عبد القادر وزوجته:

ـ آمين.. آمين يا رب العالمين.

ـ ٦ ـ

كان الشيخ عز الدين كثير الحركة، يتردَّد على مجالس البلدة، ويزور رفاق الصبا، وبيوت أقربائه وأصدقائه، فليس من طبعه الهدوء، وما ينبغي لصاحب الرسالة في هذه الحياة الدنيا أن يكون بليداً مُؤثِراً الراحة والسلامة، وعالم الدين صاحب رسالة مهمة في الحياة، لأنّه وريث الأنبياء عليهم السلام وليست رسالته محصورة في تعليم الناس فرائض الوضوء وسننهما ونواقضهما، ولا في تعليمهم أحكام الصيام والحج، ولم يُخلَق لتغسيل الموتى، وتكفينهم، ودفنهم، وتلقينهم، فالإسلام أشمل من هذا وذاك وأعمّ، وإمام المسجد إمام بمعنى من المعاني، أي ينبغي أن يكون قدوة لغيره من المسلمين، في المسجد، وفي البيت، وفي السوق، وفي الحقل، والذين يحاولون حصره في المسجد، يريدونه معزولاً عن الحياة، وعن قضايا الأمة السياسية والاجتماعية والتربوية، وهو لم يذهب إلى الأزهر، ويلتقي أكابر علمائه، ويتلقّى التوجيه من قادة الإصلاح فيه، ليعود إلى بلدته الصغيرة جبلة، ويعيش في زواياها الميتة.. لا.. أبداً لا.. إنه عاد.. وفي رأسه

المعمَّم أحلام وآمال، هيهات لبلدته أن تتسع لها، وهيهات للقصور العقلي، والاضطراب العاطفي، وللأحلام والمطامح الطفولية أن تقف عائقاً في سبيل تلك الآمال الكبيرة التي يحلم رأسه المعمّم الثائر، وقلبه النابض بعناصر الحياة، في تحقيقها.

ولهذا لم يلبث أن قرَّر السفر إلى عاصمة الخلافة، ليلتقي علماءها، ويزور مساجدها، ويتفقّد أحوال الناس فيها، فقد كان سمع الكثير عنها وهو صغير يدرج في بلدته الساحلية الجميلة، عندما يكون على شاطئها الصخريّ، واقفاً على إحدى الصخور، يرنو إلى هذه السفينة أو تلك، وهي قادمة من الأستانة، من عاصمة الخلافة، أو هي عائدة إليها.. كان يحلم ـ آنئذ ـ بركوب باخرة من تلك البواخر، إلى عاصمة الدنيا التي يقيم فيها خليفة المسلمين، وعندما كان في الأزهر، كان يصغي في اهتمام إلى ما يتحدّث به علماؤه، عن خليفة المسلمين، وعن أحوال الدولة، وعن المؤامرات التي تُحاك ضدّها.

كان يصغي ـ ذات يوم ـ إلى أحد العلماء الأفذاذ.. إنّه يتذكّر كلّ كلمة قالها ذلك العالم الذي لا يريد أن يذكر اسمه، لأنه يخشى عليه من إيذاء ذوي السلطان، فقد سمع وهو في الأزهر، أن العالم السوري الثائر عبد الرحمن الكواكبي، قد سُمَّ في القاهرة لأنّه كان يجهر بآرائه الإصلاحية، ويتحدّث بها في مجالسه العامة والخاصة، ويكتبها في الصحف السيّارة، حتى ضاقوا به، فدسّوا له السمّ في كأس شاي، ومات الرجل شهيداً، ودُفن في القاهرة.. وقد زار قبره هناك، وعرف من

مشايخه سبب موته، ولهذا ولاعتبارات أخرى، لا يريد أن يذكر اسم ذلك العالم، حتى وهو في بلدته الصغيرة جبلة، لأنه يخشى من الجواسيس والمخبرين.. سمع ذلك العالم الأزهري يقول:

ـ في دولة الخلافة العثمانية أخطاء وأخطاء، لا يجوز أن نقرّ السلطان عليها، ولا يجوز أن نقرّ وزراءه وولاته عليها، فالخطأ خطأ، ولا يجوز السكوت عليه، ولكن.. ليس معنى هذا أن نكون مع الإنكليز والفرنسيين والطليان ضدّ خليفة المسلمين.. لا يجوز هذا أبداً.. أبداً.

ثم.. هؤلاء الإنكليز الذين جاؤوا منقذين، كما زعموا، انظروا ما يفعلونه بالبلاد والعباد، ولعلكم لم تنسوا ما فعله الفرنسيون قبلهم، عندما جاء قائدهم نابليون، واحتل الإسكندرية والقاهرة وما بينهما، وأمر خيوله فدخلت الأزهر الشريف، ليذلّوا الإسلام والمسلمين، بإذلال الأزهر وعلمائه.. فماذا فعل العثمانيون؟.

إنَّ الشعوب العثمانية، ومنها الشعب العربي، تتمتَّع بالحقوق التي يتمتّع بها الشعب التركي، سياسيةً وغير سياسية، فكثير من القادة العرب، تسلَّموا مناصب عسكرية ومدنية في الدولة، فكان منهم وزراء، ورؤساء وزارات، وقادة فيالق وفرق عسكرية، وسفراء، وولاة، ومتصرّفون..

وفي مجلس المبعوثان.. يعني في مجلس النواب والأعيان، عدد من النواب العرب، يتناسب مع عددهم إذا قيس بعدد غيرهم من شعوب الدولة..

والولايات العثمانية، تُدار بمجالس إدارية، ومجالس عمومية منتخبة في الأقضية والألوية والولايات، ولهذه المجالس صلاحيات إدارية ومالية وعمرانية واسعة.. يعني: أنهم شركاء في كلّ شيء، بينما نحن هنا، تحت حكم الإنكليز، ليس لنا سوى القهر والفقر والتجهيل، وبلبلة الأفكار، وزعزعة العقيدة.

كان الشيخ عز الدين يستعيد في ذاكرته هذه الأفكار والمعاني التي تربَّى عليها هناك، ويريد أن يتمثَّلها في حياته الفكرية والسياسية العملية، ولهذا قرّر أن يسافر إلى هناك، ليرى ويعرف عن كثب.. ولقد وجد معارضة من أبيه وأصدقائه، ولكنه كان يقول في نفسه: فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله، ولهذا عمل على تذليل الصعاب التي تعترضه.. فأقنع أبويه بأن هذه الرحلة علمية، وسوف تفيده، كما أن بعض الوصايا في رقبته، والمسلم مأمور بأن يؤدي الأمانات إلى أهلها، ثم إن رحلته لن تستغرق زمناً طويلاً، وطلب من أمّه وأبيه أن يرضيا عليه، ويدعُوَا له بالتوفيق، والحفظ والستر.

-٧-

لم يطل مقام الشيخ عز الدين في البلاد التركية، كما وعد أبويه، لأنه شاهد في القرى والمدن التي زارها، كأنطاكيّة وإسكندرونة وأضنة وقراها من الجهل ما روّعه.. جهلٌ بالدين الإسلامي ورسالته، وجهلٌ بتعاليمه، حتى إنهم لا يحسنون الوضوء والصلاة، لأن أكثر هؤلاء

المساكين أميّون لا يحسنون القراءة والكتابة، بل لا يعرفونهما، وكان يقف في مساجدها خطيباً ومعلّماً، ولكنه كان يرى أولئك البسطاء لا يفهمون ما يقول، لأنهم لا يعرفون اللغة العربية، فأسرَّها الشيخ عز الدين في نفسه التي كان كثيراً ما يحاورها عندما يخلو إليها، في الطريق الذي يقطعه ماشياً أو راكباً على دابة، من قرية إلى أخرى، وعندما يأوي إلى فراشه كان يقول لها:

ـ كيف؟ كيف غاب هذا الأمر عن السلاطين؟ كيف غاب عنهم وجوب تعريب شعوبهم؟.

فتجيبه نفسه:

ـ لأنَّ سلاطين بني عثمان عسكريون محاربون، وليسوا أهل ثقافة وعلم.

ـ ولكنها لغة القرآن.. اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولغة الصلاة، ولغة أهل الجنة في الجنة.

ـ يعني.. كان ينبغي أن تكون اللغة الرسمية في البلاد؟.

ـ نعم ولا لغة سواها.

ـ حتى اللغة التركية؟

ـ حتى اللغة التركية.. فالإسلام فوق القوميات.. والفاتحون الأوّلون لم يجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، ولا على تعلّم اللغة

العربية، ولكنّ الشعوب دخلت في الإسلام، وتعلّمت اللغة العربية، ببعض الجهود التي بذلوها، وبالتعامل . .

ـ وكذلك سلاطين بني عثمان، لم يريدوا إجبار أحد على الدخول في الإسلام، ولا على تعلّم اللغة العربية.

ـ الدخول في الإسلام شيء، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد شيء آخر . . بالنسبة إلى الإسلام: لا إكراه في الدين . . أما بالنسبة لجعل اللغة العربية لغةً رسمية، فليس فيه إكراه، ولكنَّ أبناء الشعوب العثمانية غير التركية، عندما يعلمون أنَّ الأتراك أنفسهم ارتضوا لغة القرآن بديلاً عن لغتهم، فسوف يُقبِلون على تعلّمها، وسوف يرتضونها بديلاً عن لغاتهم القومية، أو إلى جانب تلك اللغات.

ـ إذن . . أنت تخطّئ سلاطين بني عثمان، وتعتبرهم مقصّرين في هذا؟.

ـ أجل . . إنهم مخطئون، ومقصّرون. ولو فرضوا اللغة العربية لغةً رسمية منذ سنواتهم الأولى، لاستعربت كلُّ تلك الشعوب وتوحّدت في تفكيرها، وتقاربت في أساليب حياتها، ولما استطاع الأوروبيون واليهود، أن يدخلوا على تلك الشعوب غير التركية من باب القوميات التي أخشى أن تمزّق دولة الخلافة . .

قالت له نفسه وهي تصعّد الحسرات والآهات:

ـ على أيّ حال، سبق السيفُ العذل ـ كما يقول المثل العربي ـ

فالدولة الآن، كما يصفها أعداؤها الكثر، رجل مريض، أو كالرجل المريض بمرضٍ قد أزمن حتى أعيا مهرة الأطباء.

فانتفض الشيخ عز الدين، وصرخ:

ـ لا.. لا.. لا نمكّن أعداء الإسلام من دولة الخلافة، مهما كان.

وقرّر الشيخ أن تكون دروسه في العقيدة الإسلامية السليمة من الانحرافات والبدع، وابتدأ تلك الدروس، وكان في كل مرة يصطدم بمشكلة اللغة، فعاد إلى بلدته كسير النفس، فقد فات الأوان، فيما يبدو، وتكاثرت السكاكين على الجسم المريض، من الداخل ومن الخارج، ولن يستطيع أن يفعل شيئاً ذا بال لحماية هذه الدولة..

ولكنّ الشيخ لم ييأس، لأنّ اليأس منافٍ لروح الإسلام، ولتعاليم الإسلام، ولا ينبغي لوريث الأنبياء أن يلقي سلاحه ويستسلم.. لا بدّ من العمل.. لا بدّ من العمل.. ولكن.. ما العمل؟ من أين يبدأ؟.

ثم هداه تفكيره الطويل إلى أنَّ سبب كلّ تخلّفٍ وفساد، إنما يكمن في هذا الجهل، في هذه الأميّة المنتشرة في أصقاع المسلمين كافة، ومنها بلدته جبلة، والقرى المحيطة بها، فشمّر عن ساعد الجدّ، وانتضى سلاح العلم، ليقتل به الجهل، هذا العدو اللدود لكلّ تقدّم، لأنه يبعد المسلمين عن فهم روح هذا الدين، وعندما لا يفقه المسلم مبادئ دينه وروحه، وأهداف الإسلام العظيم، ولا يعي الأخطار المحدقة به، يكون السقوط.. فالجهل والأمية وانعدام الوعي، هي الأعداء الحقيقيون لهذه

الأمة. وهي الأخطار الداخلية القوية، وبالتخلّص منها، يمكن التخلّص من الأخطار الخارجية.

وذات مساء، وفيما كان يسهر مع أسرته الفقيرة، قال لأبيه:

ـ ما رأيك يا والدي في أن أتولّى تعليم الأطفال في النهار، وتعليم الكبار في الليل؟.

قالت أمّه:

ـ ولماذا تعذّب نفسك يا ولدي؟.

قال أبوه:

ـ ولكنَّ تعليم الكبار صعب يا شيخ عز الدين.

وعادت الأمُّ تقول:

ـ في الليل تعليم، وفي النهار تعليم؟! إذن.. متى نراك؟!.

ابتسم الشيخ عز الدين وقال:

ـ أنا شاب يا أمي.. وهمّة الشباب تذلّل الصعاب.. أليس كذلك يا أبي؟.

ـ كما تحبّ يا شيخ عز الدين، وأجرك كبير عند الله.

فتساءلت الأمُّ:

ـ هل ستعلّمهم مجّاناً؟ .

ـ بل سآخذ أجري .

فتابع أبوه :

ـ من عند الله الكريم .

وهكذا صار الكُتّاب كخليّة النحل ، والشيخ عز الدين يبدو لناظره سعيداً جدّاً بهذا العمل المضني الذي وظّفَ فيه وله كلَّ طاقته وإمكاناته ، فكان يزور بيوت البلدة ، ويقنعهم بضرورة تعليم أبنائهم ، وكان يحاول إقناعهم بأنَّ العلم أهم من العمل في الحقل ، وأهمّ من صيد السمك ، ثم إنه لن يعطّل أولادهم عن العمل في الجبل أو في البحر ، فبإمكانهم أن يتعلّموا ويعملوا ، بل بإمكانك أنت يا أبا أحمد ، أن تعمل في حقلك في النهار ، وتتعلم عندي في المساء . . وكذلك أنت يا أبا محمد ويا حاج مصطفى ويا سيد ربيع . . بإمكانكم جميعاً أن تجمعوا بين العلم والعمل ، وسوف ترون أن العلم يعينكم على تحسين العمل وتطويره ، في الحقل ، وفي البستان ، وفي البحر ، وفي كل شيء . . فالعلم نور يا أحبائي . . العلم نور . . نور . . .

ـ والأجرة يا شيخي؟ .

ـ الأجرة قبضتها مقدَّماً .

ـ ممن؟ .

ـ في الأزهر . . من مشايخ الأزهر الذين علّموني، وعلّموا آلافاً من أمثالي لوجه الله تعالى .

ـ يعني . . سوف تقبض أجرتك من عند الله؟ .

ضحك الشيخ ضحكة مقتضبة وهو يقول :

ـ قبضت بعض الأجرة مقدّماً في الأزهر، وسوف أقبض مؤخّرها في الآخرة .

ـ في الجنة؟ .

ـ في الجنة إن شاء الله تعالى .

وهكذا كانت حواراته ومناقشاته مع أبناء بلدته الذين أحبّوه مثل قرص العسل، مثل العسل بشهده، على حدّ تعبير أحدهم . .

وصار اسم الشيخ عز الدين على كل لسان في جبلة وبانياس وطرطوس واللاذقية، وفي قرى التركمان والحفة وجبل صهيون، فقد عرفه رجال تلك المدن والقرى، وعرفته نساؤهم وأطفالهم، لأنه كان كثير التردد عليهم، يزورهم في بيوتهم، ويرتاد مضافاتهم، ويدرّس ويخطب في مساجدهم، كل ذلك في سبيل الله، ولوجه الله، فقد لاحظ هؤلاء جميعاً زهد الشيخ، وعفّته، كان أزهد الناس بما في أيديهم، وإذا جلس لمؤاكلتهم، فلإكرامهم، وليرفع الحرج والكلفة بينه وبينهم، حتى صار واحداً منهم .

وعندما صار خطيباً في جامع المنصوري، في وسط البلدة، كان يتوافد المصلون إلى المسجد من أحياء البلدة القريبة والبعيدة، ومن القرى المجاورة. . كانوا يتوافدون لسماع هذا النمط الجديد من خطب الجمعة، فهم لم يعهدوا في خطبائهم السابقين، أو الذين استمعوا إلى خطبهم في عدد من مساجد هذه البلدة والبلدات والقرى المجاورة، لم يسمعوا خطيباً مثل هذا الخطيب الفصيح، الذي يلامس عواطفهم ومشاعرهم، ويعالج مشكلاتهم، ويتعرَّض لقضايا الإسلام والمسلمين، ويقدّم لهم الإسلام بصوره الزاهية، البعيدة عن الخرافة والبدع، في أسلوب سهل يفهمونه، لأن الشيخ لا يريد أن يتفاصح أمامهم، وكان لا يثقل عليهم بطول الخطبة، أو بموضوعها، أو باستخدام عبارات معقدة، وكلمات فخمة صعبة. . .

وهكذا استطاع الشيخ استقطاب الناس، وملك قلوبهم وعقولهم، وارتفع بها، وشدَّها إلى واقعهم المعيش، وإلى القضايا التي ما كانوا يسمعون بها، حتى صاروا طوع أمره، لا يدعوهم إلى شيء إلا بادروا إلى تنفيذ ما ينتدبهم إليه. .

فعندما حاصر الإيطاليون طرابلس الغرب في أواخر عام (١٩١١م) وقف الشيخ خطيباً، وخطب الناس خطبةً حماسيةً ألهبت مشاعرهم، ندَّد فيها بالاستعمار الإيطالي الغاشم، الذي جاء معتدياً على بلدٍ عربيّ إسلاميّ، ثم دعاهم إلى التظاهر، وطافت المظاهرة شوارع جبلة، وهي تهتف لطرابلس، وتندّد بالاستعمار الصليبيّ الكافر.

وعندما احتلَّ الطليان طرابلس، دعا الشيخ عز الدين الناس إلى التطوُّع للجهاد في سبيل الله، ونصرة إخواننا في العروبة والدين، فتطوَّع معه مئتان وخمسون مجاهداً، ودعا الناس إلى التبرّع بالمال وغير المال، لتأمين أسر هؤلاء المتطوّعين، واستجاب الناس له، فتبرَّعوا بما استطاعوا التبرّع به، ثم عمد إلى الاتصال بالحكومة العثمانية، فرحَّبت به وبعمله، وشكرته على ندب الناس لمناصرة إخوانهم في طرابلس، وطلبت منه السفر إلى الإسكندرونة مع المتطوّعين كي يستقلّوا باخرة إلى طرابلس الغرب، فخفَّ الشيخ القسام ورجاله المتطوّعون إلى هناك، فمنهم من سافر بزوارق صيد، ومنهم من ركب دابّة سريعة إلى هناك، ولكنّ الباخرة لم تأتِ، والحكومة تباطأت في تنفيذ وعودها، وهكذا لبث القسام وإخوانه أربعين يوماً، ينتظرون في الإسكندرونة، تلقَّوا ـ بعدها ـ أمراً من الحكومة الاتحادية بالعودة إلى بلادهم.

عاد القسام وصحبه، ونفوسهم تتنزَّى ألماً، لأنّهم حُرموا من الجهاد في سبيل الله، وحُرموا من نجدة إخوانهم في طرابلس، ولأنهم عرفوا أيّ حكومة متآمرة على الإسلام والمسلمين حكومة الاتحاديين التي تحكم باسم العثمانيين، وهي عدوة لهم وللعروبة والإسلام، وللعرب والمسلمين.

وابتلع القسام الألم، ومسح دمعتين ترقرقتا في عينيه، لهذه الحال التعيسة البائسة التي آل إليها المسلمون، ثم قال لإخوانه:

ـ سوف نبني مدرسة لتعليم الأميين، بهذه التبرعات.

فهلّل الناس وكبّروا، والإعجاب يملأ نفوسهم، بما يفكّر به هذا الشيخ، وبادروا معه إلى بناء تلك المدرسة، التي كان لها الفضل في نشر نور العلم، وقتل ظلام الجهل في جبلة وما حولها من القرى.

ـ ٨ ـ

دخل الشيخ عز الدين إلى المدرسة الليلية لتعليم الأميين، وهو متجهّم الوجه، على غير عادته، ووقف يتأمل الوجوه، دون أن يتفوّه بكلمة.. حتى السلام نسيه، فتململ خالد في جلسته، ثم تشجّع وقال:

ـ ما لكَ يا سيّدنا الشيخ؟ دخلتَ عابساً، ولم تسلّم..

فقال الشيخ:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وردَّ تلاميذه الكبار التحية بأحسن منها كالعادة، ثم عاد خالد يسأل الشيخ:

ـ خيراً إن شاء الله يا شيخ؟ قطَّعْتَ قلوبنا!!.

فقال الشيخ، وهو ما يزال في تقطيبه:

ـ يحقّ لقلوبكم أن تتقطّع!.

فسأل أبو علي في سذاجة:

ـ لماذا يا شيخ؟ هل أخطأنا في شيء؟ .

أجاب الشيخ :

ـ أكبر خطأ، أن يحتلّ الفرنسيون بلادكم، وأنتم لا تعرفون .

ـ متى احتلّوها يا شيخي؟ .

ـ ماذا احتلوا يا شيخ؟ .

ـ من أين لنا أن نعرف أنّهم احتلّوها، إذا لم تقل لنا أنت؟ .

ـ هل انكسر الألمان حتى احتلوا بلاد الإسلام يا شيخ؟ .

وبعد أن استمع الشيخ إلى تساؤلاتهم هذه قال لهم :

ـ المهمّ أنَّ الجيوش الفرنسية احتلّت الساحل السوري منذ أيام، وسفنهم الحربية في ميناء بيروت وطرابلس، واللاذقية والإسكندرونة، وعساكرهم تتبختر في هذه المدن، تعتدي على الأهالي، وتتحرَّش بالنساء، و . . .

فصرخ خالد :

ـ لا تكمل أرجوك! .

فسأل الشيخ :

ـ لماذا لا تريد أن تسمع يا خالد؟! اسمع ما يفعله جنود الاحتلال، لأنهم سوف يحتلون جبلة، وبانياس، وطرطوس، وكل قرية وكل

بلدة.. إنهم لن يقفوا أو يكتفوا باحتلال المدن الساحلية.. سوف يتوغّلون في الداخل، ويحتلون دمشق وحمص وحماة وحلب إذا استطاعوا.

ـ والمطلوب منّا يا سيدنا الشيخ؟.

ـ المطلوب أن ندافع عن أرضنا، عن عرضنا، عن ديننا، عن شعبنا، عن بحرنا، عن جبالنا، عن نسائنا، عن أطفالنا...

ـ كيف؟.

ـ سألتني: كيف؟ وأنا أجيبك..

ـ تفضّل يا سيّدي.

قال الشيخ في حزم:

ـ بحمل السلاح، والجهاد في سبيل الله.

فعاد خالد يسأل:

ـ كيف يا شيخنا، ونحن لا نملك أي قطعة سلاح؟.

وقال أحمد:

ـ وأنا لم أمسك، في حياتي، مسدساً أو بندقية!!.

قال الشيخ:

ـ معكم حقّ . . ولكننا سوف نتغلّب على هذه المشكلات بإذن الله .

ـ كيف ؟ .

ـ غداً أقول لكم كيف .

وعندما عاد الشيخ إلى بيته ، قال لزوجته :

ـ الفرنسيون احتلوا الساحل ، وسوف يحتلّون جبلة وبانياس وطرطوس ، وكل المدن والقرى الساحلية ، فماذا ترين ؟ .

كانت الزوجة المسكينة قد عقدت الدهشة لسانها ، فلم تدرِ ما تقول . .

فقال الشيخ :

ـ ما رأيك في الانتقال إلى (الحفّة)؟ هناك تكونين أنتِ والأولاد بعيدة عن الفرنسيين ومشاكلهم .

ولمّا لم تُجِب الزوجة ، تابع الشيخ يقول :

ـ جهّزي نفسك للرحيل . .

وأطفأ السراج ، واندسّ في فراشه ، وحاول أن ينام ، ولكنّ النوم استعصى عليه ، لأنه كان يحترق من الداخل ، للوضع المزري الذي يعيشه المسلمون ، حيث الجهل والفقر والتخلّف . . الفرنسيون نزلوا ببوارجهم وسفنهم الحربية إلى البرّ الشامي ، وهم الآن يسكرون ويسبّون

ويشتمون، وسوف يعيدون سيرتهم الأولى أيام غزوا بلادنا، وأقاموا فيها ممالكهم ودويلاتهم الصليبية، وفي العصر الحديث، في مصر، عندما غزوها بقيادة نابليون.. سوف يسرقون كل شيء.. النساء والعقول والخيرات، وسوف يفسدون كل مدينة أو بلدة أو قرية يدخلونها، وإذا لم يتصدَّ الشعب لهم، فإنهم سوف يبيضون ويفرّخون فساداً وإفساداً.. ويا ضيعة الدين والخلق القويم.. يا ضيعة الأرض والعرض.. ولكن.. ماذا عساي أن أفعل؟ معهم جيوش منتصرة، ومزوّدة بأحدث أنواع السلاح، وليس معنا سوى أظافرنا وأسناننا وعصيّنا وهذه الأحجار.. ولكن.. هل معنى ذلك أن نستسلم؟! كان العربي يموت دون ناقته، أفلا نموت دون بلادنا وديننا وشعبنا؟! ألا نحافظ على أعراضنا، ولو بذلنا دماءنا؟! بلى.. يجب أن نقاوم، فلا عذر لنا بعد أن وطئت أقدام الأعداء الكفرة أرض الإسلام والمسلمين.. لا عذر لكبير ولا لامرأة ولا لصغير.

ولكن.. من أين نأتي بالسلاح؟ وإذا وجدناه، فمن أين نأتي بالمال الذي نشتري به السلاح؟ أنا لا أملك سوى هذا البيت، فهل أبيعه وأشتري بقيمته سلاحاً؟ ولكن.. كم قطعة سلاح سوف يشتري لنا؟ إذن.. لا بدَّ من بيع كلّ ما نملك، ونشتري به أسلحة وذخائر، وسوف يفعل غيرك مثلك، عندما يعرفون أنك بعت دارك، وأثاث بيتك.. فلا يجوز أن نستنيم للضَّيم، مهما كانت قوة الأعداء، ومهما بلغ بنا الضعف.. هكذا قال لي الشيخ كامل القصّاب، وهذا هو الصحيح..

وتذكّر الشيخ عزّ الدين جيش العسرة، وكيف تمّ تجهيزه.. تذكّر أبا بكر الذي جاء بكل ماله، وتذكّر عمر الذي جاء بنصف ماله، وتذكّر عثمان الذي جهّز أكثر الجيش، وتذكّر البكّائين من آل مقرّن، الذين جاؤوا يطلبون من الرسول القائد ﷺ أن يجهّزهم لخوض المعركة، ولكن الرسول العظيم يعتذر لهم، لأنه لا يجد ما يحملهم عليه، فتولّوا وأعينهم تفيض بالدمع، لأنهم لن يتمكّنوا من خوض تلك المعركة الفاصلة، ولن يقاتلوا تحت لواء سيّد الخلق محمد ﷺ..

تذكّر الشيخ كلَّ هذا وأضعافه، ثم عاد إلى الواقع المعيش، إلى الغزاة الفرنسيين، وإلى تلاميذه الكبار في المدرسة الليلية، وإلى الشعب الفقير، وتململ في فراشه، ثم اهتدى إلى فكرة قد تسعفه.. فكرة بيع بيت أبويه وأخيه، ولكنه استسخف هذه الفكرة، فهو يملك بيته، ولا يملك أن يبيع بيوت أهله.. ثم قال بصوت مسموع:

ـ سوف أبيع البيت والأثاث.

فهبَّت زوجته مذعورة مما سمعت، ونادت:

ـ عزّ الدين!.

وجاءها الردّ حزيناً ثائراً على شكل سؤال:

ـ هل سمعت كلامي يا امرأتي العزيزة؟.

فقالت، وهي في دهشتها:

ـ إذن أنت تحدّث نفسك وأنت يقظان؟ .

ـ أجل يا زوجتي الغالية . . لم أستطع النوم .

ـ بماذا تفكّر؟ .

ـ ببيع الدار يا أمّ العيال! .

فصرخت أمّ العيال :

ـ ماذا تقول يا رجل؟! هل جننت؟! .

قال :

ـ وهل يمكن أن يبقى في رأسي عقل، والفرنسيون يحتلّوننا؟! .

فخفّفت من حدّتها، لأنها عرفت ما يعاني زوجها من هؤلاء الغزاة القادمين بأسلحتهم وفجورهم، وقالت :

ـ ونحن؟ أين سنعيش يا عز الدين؟ .

قال الشيخ في استسلام الواثق بموعود الله :

ـ لنا الله يا عزيزتي . . الله يرعانا جميعاً ويحفظنا .

فسكتت الزوجة، ومسحت دموعها بكفّيها، بصمت، فناداها زوجها :

ـ هل نمتِ يا أم أولادي؟ .

فلم تردّ، وإنما ردّ بكاؤها ونشيجها المكبوت، فصرخ:

ـ هل تبكين يا امرأة؟.

ولكنه لم يتلقَّ رداً، فحنا عليها، وقال بلهجة ودود:

ـ لا تبكي يا زوجتي، كوني قوية، أريد أن أستمدّ من قوتك بعض قوتي.. الضعيف لا يستطيع مواجهة الأقوياء.. وأنتِ تضعفينني ببكائك..

فهتفت مقاطعة:

ـ إذن.. كيف تواجه الفرنسيين الأقوياء؟.

ـ لأنني أقوى منهم.

ـ كيف؟.

ـ بإسلامي، بإيماني بربّي، بثقتي بهذا الشعب، فإذا انتصرنا سعدنا في هذه الحياة، وإذا استشهدنا فزنا بالجنة.

ـ ٩ ـ

عندما أذَّن المؤذّنون لصلاة الفجر، خفَّ الشيخ عز الدين إلى المسجد، كأنَّ عبئاً ثقيلاً يؤود كاهله، ويريد أن يتخفَّف منه.

دخل إلى مسجده، وعيناه تبحثان عن محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد، رفيقي الصغر، وموضع ثقته وسرّه، ولكنهما لم تقعا عليهما، أو

على واحد منهما، ولكنه بعد أن أحرم بالصلاة، سمع نحنحة الشيخ الحنفي، وكان يعرفها جيداً، فهمَّ بقطع صلاته، ليفضي إليه بما في نفسه، ولكنه عدل عن ذلك، وأتمَّ صلاة سنة الفجر، ثم زحف نحو صديقه الذي كان يصلّي السنّة بالقرب منه، وهمس له:

ـ أريد أن أراكَ أنت وعلي عبيد.. أنا أنتظركما في البيت بعد الصلاة.

فسأله صديقه الحنفي:

ـ هل من جديد؟.

ـ في البيت تفهم كلّ شيء.

وبعد أن صلّى الشيخ بالناس صلاة الفجر، تكلّم كلمة مسهبة حول معاني الآيات التي قرأها في الصلاة، وكانت حول الجهاد، فحمَّس الناس، ودعاهم إلى حمل السلاح، والدفاع عن بلادهم وأعراضهم، وقال لهم: إنّ أرضكم كعرضكم، فحافظوا عليهما، لا ينتهكهما الغزاة القادمون من أوروبة.

وفي بيت الشيخ، التأم شمل الأصدقاء الثلاثة، وقبل أن يستفسر الشيخ الحنفي عن فحوى هذا اللقاء، قال الشيخ القسام:

ـ قررتُ بيع البيت والأثاث!.

ـ أيّ بيت؟ وأيّ أثاث؟!.

ـ بيتي هذا، وأثاثه . .

ـ لماذا؟ .

ـ سنتشري بثمنه وثمن أثاثه بندقيات ومسدسات .

ـ والأسرة؟ .

ـ أيّ أسرة؟ .

ـ أسرتك يا شيخ عز الدين، أين تسكن؟ .

ـ سوف أرسلها إلى الحفة .

ـ معقول؟! .

ـ طبعاً معقول . . وإلا . . فكيف نقاتل الغزاة؟! .

ـ نحاول جمع بعض المال من الناس .

فتساءل الشيخ عز الدين :

ـ ألم تجعلوني إمامكم؟ .

ـ بلى .

ـ ألستم تقتدون بي في الصلاة؟ .

ـ وفي غير الصلاة .

ـ إذن أنا قدوة، وأنتم المقتدون! .

قال علي الحاج عبيد :

ـ لم أفهم ! .

فقال الشيخ محمد الحنفي :

ـ أنا فهمت .

فقال عليّ :

ـ فهّمني ! .

قال الشيخ الحنفي :

ـ ألم تسمع شيخنا القسام يردّد هذه العبارة دائماً :

فاستلم القسام الكلام وقال متابعاً كلام الشيخ الحنفي :

ـ إذا أردتَ أن تكون إمامي، فكن أمامي ! ! .

وأنا إمامكم في الصلاة، وفي غير الصلاة . . ولهذا سأكون أمامكم في البذل والتضحية بالنفس والمال والوقت والجهد، وفي كلّ ما أستطيع فعله .

قال الشيخ الحنفي :

ـ بارك الله فيك يا شيخنا . . أنت إمامنا وقدوتنا وقائدنا، ولكنني أعترض .

ـ على بيع البيت؟ .

ـ وعلى تهجير الأسرة الكريمة إلى الحفة .

قال الشيخ ، بعد أن اعتدل في جلسته :

ـ السيد عمر البيطار أعلن الثورة ، يعني سبق العلماء إلى الجهاد ، وما ينبغي لعلماء الدين أن يتقاعسوا عن اللحاق بثورته التي أعلنها في بلدة الحفة .

وعندما أراد السيد علي الحاج أن يتكلّم ، قال الشيخ :

ـ الأمر مبتوت . . استخرتُ الله ، وخار لي . . اختار لي الجهاد ، وسوف تكونان معي ، ولا داعي لضياع الوقت . . سنبيع البيت اليوم إن شاء الله ، وسوف أرحّل أسرتي الآن إلى الحفة ، وفتّشوا عن قطع السلاح واشتروا بثمن البيت وأثاثه ما تستطيعون من سلاح . . هيّا قوما وأنجزا هذه المهمة بسرعة .

نهض الرجلان الصديقان الوفيّان ، وغادرا البيت وهما يحوقلان ، وأغلق الشيخ باب الدار ، وعاد إلى زوجته ، فرآها منهمكة في حزم ألبستها وألبسة أطفالها في صرر متواضعة ، فقال لها ، والدموع ملء عينيه :

ـ أصيلة يا زوجتي الغالية ! .

فاستقبلته الزوجة المطيعة بعينين ضاحكتين ، وقالت له :

ـ لقد حلمت الليلة، أنك تسير في غابة (الفرلّق) مع فارس مهيب، ولمَّا رأيتني تركته وجئت إليّ، وقلت لي: هل تعرفين ذلك الفارس؟ إنه خالد بن الوليد، جاء يقاتل معنا الفرنسيين.. هيئي لنا الفطور.. ثم تركتني وذهبت إليه، وعندما حضّرتُ الفطور، قلت لي: جاءنا ضيف آخر.. جاءنا البطل صلاح الدين.. ثم أفقتُ على صوت إبريقك تتوضأ منه.

فتهلّل وجه الشيخ وقال في انفعال شديد:

ـ أبشري يا زوجة الشيخ عز الدين، فقد كتب الله السعادة لزوجك!.

ـ لزوجي؟.

ـ ولكِ أيضاً، ما دمتِ تساعدين زوجك وإخوانه المجاهدين.

وسكت الشيخ، لأنه لم يستطع متابعة الكلام، فقالت:

ـ أنا والأولاد مستعدّون للسفر.

فسأل الشيخ:

ـ أكلتم؟.

ـ نعم.. أطعمتهم.. هيّا يا شيخ، لا تضيّع وقتك.

ـ ١٠ ـ

لم تغب شمس ذلك اليوم، حتى بِيعَ البيت، واشتُريت الأسلحة،

واستقرّت أسرة القسام في بيت متواضع في الحفة، عند بعض الأقرباء.

وسُرَّ الشيخ بشراء أربع وعشرين بندقية، مع ذخيرة مناسبة، وإن تكن دون المطلوب، جهَّز بها الشيخ مجموعةً من أصدقائه وأقربائه وتلاميذه المخلصين، وانتقل بهم إلى الحفّة، ووضع نفسه تحت تصرف قائد الثورة: السيد عمر البيطار. وصار القسّام يطوف مع صاحبيه في القرى، يحمّس الناس، ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، ويرغّبهم ويمنّيهم الأجر والتكريم في الدنيا والآخرة، وكان يلقى استجابة من أكثر الذين يدعوهم، لأنهم جميعاً يعرفونه، ويعرفون صدقه وإخلاصه، وكان خبر بيع بيته، وأثاث بيته، وشراء الأسلحة بثمنها، قد شاع وذاع، وكان له أطيب الأثر في نفوس الناس جميعاً، حتى أطلق بعضهم على الشيخ لقب (الرجل الرباني) و(ابن الآخرة) و(الشيخ المجاهد) الذي يسبق فعلُه قولَه، والشيخ الذي خرج من دنياه كما دخلها، متوجّهاً إلى الله.

وكان الشيخ يدرّب المتطوّعين في غابات الفرلّق وصلنفة وجبال اللاذقية، وينظّمهم في مجموعات صغيرة، وكان هو على رأس إحدى المجموعات المقاتلة، وتمكّن من القيام ببعض العمليات الناجحة ضدَّ الفرنسيين، يكيل لهم الضربة تلو الضربة، ويتصل بالحكومة الوطنية في دمشق، بوساطة الشيخ كامل القصاب، ويطلب منها ومن الملك فيصل إمداده بالسلاح والذخائر والمعلومات التي تساعده في إحكام خططه، وكان يلقى استجابةً طيّبةً من الملك وحكومته، كما كان يتصل بالمجاهدين

الثائرين في غوطة دمشق، وفي حلب، حتى ذاع صيت هذا الشيخ الشاب المعمَّم في سائر المدن والقرى السورية، وصار حديث المجالس، وكلٌّ يتحدَّث عن الشيخ كما يحلو له، وكما يُخيَّل إليه ويتصوّر. . فالعمليات التي يقوم بها الشيخ لا تُنقل كما هي، بل يُزاد عليها. . كان السوريون يتندَّرون بها، ويحمّس بعضهم بعضاً بروايتها، والتلذّذ بالتفاصيل التي كانوا يخترعونها. . قال بعضهم: إنَّ الخضر عليه السلام يقاتل مع الشيخ، وقال آخرون: بل إنّ الملائكة تقاتل مع الشيخ، وتحميه بأمر الله، وإلا، لما استطاع الشيخ مهاجمة دورية فرنسية من الخيّالة، معها الرشاشات الآلية، وليس مع الشيخ وصاحبيه سوى ثلاث بندقيات، وبعض الطلقات، مع أنّ تلك الدورية كانت مؤلَّفة من عشرة أنفار وقائدهم، وليس مع الشيخ سوى الشيخ الحنفي وعلي عبيد. . وقد قتلوا خمسة من أفرادها، وجرحوا قائدها، وفرَّ الباقون، ناجين بأرواحهم.

وتحدَّث الناس عن الكمين الناجح الذي نصبه الشيخ لدورية فرنسيّة من الخيّالة، واستطاع أن يقتل اثنين منها، ولاذ الباقون بالفرار، تاركين الجثتين، فجاء الشيخ، ودفن الجثتين، وأخذ سلاحهما.

وكان القادمون من جبل صهيون والحفة أو من الساحل إلى حماة أو حمص أو حلب أو دمشق، يتعرَّضون لأسئلة كثيرة حول الشيخ، ودينه وورعه وأخلاقه، وحول جرأته في الحقّ، وشجاعته في المعارك، وكيف أنه لا يهاب الموت، وهو يهاجم أعداءه، حتى قال أحد القادمين إلى حماة: إنَّ مجموعة الشيخ، تصدَّت لسريّة فرنسيّة، وأوقعت بها،

وقتلت عدداً من أفرادها، فأمرهم قائدهم بحمل جثث القتلى التسعة عشر، وعادوا أدراجهم إلى ثكنتهم في اللاذقية، فتحمَّس الشبان الذين تجمّعوا حول ذلك الرجل، وطلبوا منه أن يبيّن لهم الطريق الموصل إلى الشيخ، فقال لهم:

ـ صعب جداً.. الشيخ لا يثبت في مكان.. الشيخ حذر جداً، وله أكثر من مكان في المغارات، وفوق الأشجار.

فسأل شاب تتّقد عيناه حماسة:

ـ فوق الأشجار؟.

ـ نعم.. كما تبني النسور أعشاشها، يبني الشيخ بيوته.

وقال التاجر الذي كان يجري الحديث في دكانه:

ـ كنت أريد إعطاءك بعض المال والبرغل والسكر والرز للشيخ.

أجاب الرجل الساحلي:

ـ صعب جداً يا حاج.. أنا لا أعرف مكانه!.

ـ طيّب.. خذها، ثم فتّش عن مكانه، فإذا عرفته، فخذها وسلّمها إليه، وسلّم لنا عليه، وقل له: كلُّنا ندعو لك.

قال الرجل:

ـ ولماذا لا تفعلون مثل الشيخ؟

ـ ومَن سيقودنا؟ .

ـ أنتم اعزموا، وتوكّلوا!! .

وهتف الشابّ صاحب العينين المتّقدتين :

ـ هذا هو الكلام الصحيح . . أن نعمل كما عمل الشيخ عز الدين .

وقال شاب آخر، يبدو أنه أخو ذلك الشاب المتحمّس، لأنه يشبهه كثيراً :

ـ عندنا مشايخ، ولا بدَّ أن يكون بينهم مثل الشيخ القسام .

قال الرجل الساحلي :

ـ أحسنت يا أخي . . فالشيخ القسام شيخ، وليس ضابطاً، ومع ذلك، دوّخ الضباط الفرنسيين وعساكرهم . .

قال الشاب :

ـ هل تسمح لي يا أخي بكلمة على انفراد؟ .

فانسحب الرجل الساحلي من بين الناس، فالتقم الشاب إحدى أذنيه وقال له :

ـ حديثك، يا أخي، يدلّ على أنك تعرف الشيخ القسام .

ـ طيّب . . ماذا تريد؟ .

ـ أريد أن تصحبني وابن عمّي صاحب العينين الحمراوين معك . .

خذنا إليه يا أخي .

فهمس الرجل في أذنه :

ـ جهِّز نفسك .

ـ متى ؟ .

ـ بعد ساعة ، نلتقي في جامع السلطان ! .

ـ ومعي ابن عمي ؟ .

ـ ومعك ابن عمك . .

وبعد أيام ، شاع في المدينة ، أنّ ذلك الرجل الساحلي الذي جاء في هيئة فلاح ، كان هو القسام نفسه ، وقد اصطحب معه عدداً من شباب حماة ، قال بعضهم : كانوا عشرة شبان ، وقال آخرون : بل كانوا مئة شاب ، فقال التاجر الحمويّ الذي حمّل ذلك الرجل والشابّين بعض المواد التموينية والمال :

ـ على أية حال . . ذهب معه الشابّان الأشقران على أقلّ تقدير . . زاروني في بيتي بعد صلاة العصر ، وتغدّى الرجل عندي دون الشابين ، وقال لي : أما زلتَ مصرّاً على تزويد القسام ببعض الأشياء ؟ .

ثم أعطيتهم ما فيه النصيب من مؤونة البيت ، وبعض المال ، وقال لي الرجل قبل أن يودّعني :

ـ وصل سلامك إلى القسّام، والقسّام يسلّم عليك.

قال التاجر: فوقفت مبهوتاً، وتساءلت في نفسي: كيف وصل سلامي إلى القسام؟ وكيف أرسل القسام سلامه إليّ؟!.

لا بدّ أن ذلك الفلاح الساحلي هو القسام نفسه، أو هو أحد رجاله المقرّبين، والقسام كان في حماة نفسها.

وتحرّك بعض الشبان في حماة، وتحمّس بعض المشايخ، ودعا بعضهم للشيخ القسام على المنبر، وفي الدروس في المساجد، ونشط بعضهم في حملة تبرعات، بينما حاول شبان آخرون القيام ببعض الأعمال العسكرية، كالتدريب على القتال بالسكاكين والسيوف، وكاقتناء بعض المسدسات والبنادق، والالتحاق بثورة عمر البيطار والقسام في الساحل، أو بثورة إبراهيم هنانو في حلب.

وتحدَّث أهل حمص عن زيارة سريّة قام بها الشيخ القسام لمدينتهم، وكان متنكّراً في زي شيخ صوفي من مشايخ الريف، وأنه اشترى بعض المواد التموينية، والتقى بعض المشايخ، وحرَّضهم على الثورة، وأنَّ بعض مشايخ حمص بايعوه على الجهاد في سبيل الله، وعاهدوه على أن يزوّدوه بالمال والسلاح والرجال إن استطاعوا.

وهكذا تعاظمت هذه الثورة، حتى ضاق بها المستعمرون الفرنسيون، فشنّوا حملات مكثّفة على معاقلهم في الحفة وجبل صهيون، وفي غابات صلنفة والفرلّق، وصارت تطارد كلّ من تشكّ في صلته

بالقسام والبيطار، وقطعت عنهم الإمدادات، من طعام وذخيرة، مما أدّى إلى ضعف ثورة البيطار ثم توقّفها، والشيخ القسام يرى ويسمع عن تراجع حليفه البيطار، فما زاده ذلك إلا تصميماً على القتال، وعدم الاستسلام للقوات الفرنسية، التي عرضت عليه عروضاً مغرية، ولكنه احتقرها ورفضها، فأصدرت أحكاماً بالإعدام عليه وعلى بعض رجاله، ولكنه لم يأبه لتلك الأحكام، واستمرّ في نشاطه الجهادي، على قلة ما عنده من سلاح وذخائر ورجال، وعلى الرغم من الإشاعات بعد سقوط الملكية، ومغادرة الملك لسورية، واحتلال الفرنسيين للمدن الداخلية.

وفكّر الفرنسيون من جديد، بمفاوضة القسام، وعرضوا عليه إلغاء أحكام الإعدام التي صدرت بحقّه وحقّ زملائه، وعرضوا عليه المال والمنصب، ولكن شموخ الإسلام، أبى عليه أن يرضى بتلك العروض، وعدَّ أيّ تنازل خيانة للدين والوطن، لأنه لم ينسَ تعريف جمال الدين لخائن الوطن والدين.

وذات مساء، وفيما كان في بيت سرّيّ لأحد المجاهدين المستورين سأله علي الحاج عبيد:

ـ حتى متى، يا مولانا، نبقى هكذا؟.

فتشجَّع الشيخ الحنفي وقال:

ـ لم يبقَ عندنا تموين، والذخيرة نفدت ولم يبقَ منها إلا القليل، والقرية التي نكون فيها تتعرض للنهب والتنكيل، والحصار مضروب

علينا من كلّ جانب، والمخبرون الساقطون الخونة، يتسقَّطون أخبارنا لقاء دريهمات يأخذونها من الفرنسيين . . فما العمل؟ .

قال الشيخ بسرعة :

ـ نهاجر .

ـ إلى أين؟

ـ إلى فلسطين . .

ـ إلى فلسطين؟ .

ـ نعم . . إلى فلسطين . . فالمؤامرة كبيرة جداً على فلسطين، والإنكليز الخبثاء يمهّدون لليهود، لاغتصابها من أهلها .

فسأل علي الحاج عيد :

ـ وهل يمكن هذا يا مولانا؟ .

أجاب الشيخ :

ـ وإن كنتُ لا أدري ماذا تعني بسؤالك، فإني أقول لك : سفرنا إلى فلسطين ممكن، وقيام دولة لليهود في فلسطين ممكن، إذا لم نقف في وجه الإنكليز واليهود ومخططاتهم .

فعاد عليّ يسأل :

ـ إذا كان لا بدّ من الاستمرار في حمل السلاح، فما رأيكم في

البقاء هنا، والدفاع عن أرضنا، وتحرير بلادنا من المحتلين الفرنسيين؟.

فقال الشيخ:

ـ كلّها بلادنـا.. سورية، فلسطين، مصر، العراق، تركيـة، الحجاز... كلّها بلاد إسلامية، والدفاع عنها واجب، والدفـاع عن فلسطين أشدّ وجوباً.

ـ لماذا يا شيخ عز الدين؟.

ـ لأنّها أرضٌ مقدّسة، فيها القدس الشريف، والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وخليل الرحمن.. إنها أرض الأنبياء، ومسرى الرسول العظيم محمد ﷺ، ومنها عرج إلى السماء ليدلّنا على أهميتها، وعلى قدسيّتها.. إنها أرضٌ مباركة، أرض الآباء والأجداد، وترابها مجبول بدماء المجاهدين من الصحابة والتابعين، فهل يجوز أن نتركها لقمة سائغة لأولئك الكفار؟.

ـ لا يا مولانا.. لا يجوز.

فقال الشيخ:

ـ إذن.. فاستعدّوا للرحيل.

فسأله الشيخ الحنفي عمّا إذا كانوا سيصحبون معهم سواهم، أم يقتصر الرحيل عليهم؟ فأجاب القسّام بسؤالهما:

ـ ما رأيكم أنتم؟.

قال الشيخ الحنفي :

ـ أرى أن يكون معنا بعض الشبان الموثوقين .

ـ مثل مَن؟ .

ـ مثل أحمد إدريس ، والحاج خالد القسام ، وظافر القسام مثلاً .

وقال علي الحاج عبيد :

ـ نسيت عبد الملك القسام يا شيخ محمد .

فنظر الشيخ محمد إلى الشيخ عز الدين ، يستطلع رأيه ، فهزَّ الشيخ عز الدين رأسه بالموافقة ، وسأل :

ـ هل فاتحتموهم؟ .

فسأل الحنفي :

ـ وهل كنّا نعرف ما يدور برأسك يا مولانا ، حتى نفاتحهم؟ .

فعاد الشيخ عز الدين يسأل :

ـ هل أنتم واثقون منهم كلَّ الثقة؟ .

ـ اسأل نفسك يا مولانا ، فأنت أعرف بهم منا .

قال القسام :

ـ بارك الله فيكم وفيهم . . كلّكم أهلٌ للثقة والفخر .

ـ هل نفاتحهم؟.

ـ فاتحوهم، فإذا وافقوا، فليستعدّوا.

ـ ومتى سيكون السفر؟.

قال الشيخ عز الدين بصوت خفيض، كأنه يخشى أن يسمعه أحد غيرهما:

ـ بعد أيام.. الشيخ كامل القصاب يرتّب أمر السفر، ولكن في سريّة وكتمان.. فاستعينوا بالكتمان.

نهض الرجلان في نشاط، وودّعهما الشيخ، ووقف ينظر إليهما حتى ابتلعتهما العتمة، ثم شخص ببصره إلى السماء وابتهل: اللهمَّ احفظهم.. اللهمَّ كثّر من أمثالهم.

ـ ١١ ـ

وفي اليوم المحدّد، تسلّل الشيخ القسام مع إخوانه الستة، وسَرَوْا ليلاً نحو جبل الزاوية الذي لا يبعد كثيراً عن جبل صهيون والحفّة، وعندما طلع الفجر عليهم هناك، صلّوا الصبح ثم أووا إلى صخرة، فناموا بِلِصْقها، لتحميهم من حرّ شهر آب اللهّاب، ولكنّ عيني القسام كانتا عصيّتين على النعاس، فلم تغمضا، كما أنَّ قلبه وسائر حواسّه كانت يقظة، تنتبه لكل حركة قد تصدر من نسمة ريح على عشبة يابسة، أو حركة لحيوان برّي، فقد شاهد أرنباً يطارده ثعلب، ففكّر بقتل الثعلب

المعتدي، ولكنّه كفّ عن ذلك، لأنه خشي أن يتنبه لهم بعض الفلاحين، كما أنّه سوف يروّع أصحابه النائمين. ولكنه عندما شاهد الثعلب يتمكّن من الأرنب، صاح الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله، فأفاق الحنفي، ونظر نحو الشيخ الذي كان واقفاً يضرب كفّاً بكفّ، وعندما استفسر منه، وحكى له الشيخ، انفجرا معاً بالضحك، وقال القسام:

ـ مسكين ذلك الأرنب.

فقال الحنفي:

ـ والثعلب جائع، فهو مسكين، ونحن جائعون، فنحن مساكين.

ـ يعني.. هل كنا نحن أولى بالأرنب من الثعلب، يا شيخ محمد؟.

أجاب الحنفي، مغيّراً مجرى الحديث:

ـ يبدو أنك لم تنم يا مولانا؟.

ـ هل يظهر عليَّ التعب؟.

فابتسم الشيخ الحنفي، وقال له:

ـ لا يا مولانا.. الظاهر عليك هو الإعياء.. الإعياء الشديد.. وليس التعب.

فابتسم القسام بدوره، لهذا الأسلوب الجميل، وقال له:

ـ هل كان من المناسب أن ننام جميعاً، بلا حراسة؟ .

ـ لماذا لم تقل هذا؟ كنت أنا أحرسكم .

فقال القسام :

ـ أو أنا . . أم أنك نسيت يا شيخ محمد! أننا إخوة في الله، متكافلون متضامنون، في البأساء والضراء، وفي كل الأحوال؟ .

قال الحنفي :

ـ لا . . لم ولن أنسى ذلك ما حييت، وأرجو من الله الكريم، أن يديم علينا نعمة هذه الأخوّة، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، لنكون معاً، في الفردوس الأعلى .

فقال الشيخ عز الدين : آمين . . وكانت خارجة من أعماقه .

واستيقظ بقية الصحب على حوار الشيخين، على الرغم من أنهما كانا يتحدّثان بأصوات مهموسة، وعلى بعد أمتار من النائمين . .

وهبَّ الجميع يهيّئون الفطور مما كان عندهم من زاد، بينما جاءهم ابن العبيد ببعض الحشائش البرية اللذيذة، كحشيشة الزعتر، والخبّيزة، والنعنع، فكان فطوراً شهياً، فأكلوا حتى الشبع والامتلاء، وحمدوا الله تعالى على هذه النِّعَم، فقال الشيخ أحمد إدريس :

ـ ولتسألنّ يومئذٍ عن النعيم .

وعندما توارت الشمس خلف جبال اللاذقية، صلّى الشيخ عز الدين بهم جماعة، ثم يمّموا شطر جسر الشغور، وتعشّوا هناك عند أحد المجاهدين المستورين وباتوا عنده، وفي المساء بدؤوا يجهّزون أنفسهم لمغادرة بلدة الجسر، وفي العتمة، خرج الشيخ وصحبه، وتوجّهوا نحو بيروت، وانطلقوا يخبّون على أقدامهم، غير مكترثين بوعثاء الطريق ومشاقّه ومخاطره.

ولم يكادوا يستقرّون في بيروت، ويختلطون بالناس، حتى عرفوا أنَّ أحكام الإعدام الصادرة على القسام وإدريس، على كل لسان، كما عرفوا أنّ مقامهم في بيروت شبه مستحيل، لأن المخبرين المتعاونين مع الفرنسيين كُثُر، ولأن الفرنسيين يحكمون بيروت، كما يحكمون اللاذقية، وقد يتمكنون من القبض عليهم.

قال القسام لأصحابه:

ـ أرى أن نغادر بيروت متنكّرين، كما دخلناها متنكّرين.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى فلسطين.. ألم تكن فلسطين وجهتنا؟.

ـ بلى.

ـ إذن.. سوف نغادر بيروت مساء غد.. والأخ ظافر والأخ علي يؤمّنان احتياجات الرحيل.

فسأل ظافر :

ـ والطريق الذي سوف نسلكه ، هل هو كالطريق الذي قطعناه مشياً على الأقدام؟ أم سنسافر في زورق صيد، أو سفينة سوف ترسي في حيفا؟ .

قال الشيخ :

ـ سوف نغادر إلى صيدا، فنستريح فيها قليلاً ، يوماً أو بعض يوم، ثم نغادرها إلى عكا، ونستريح فيها قليلاً . . .

فقال الشيخ أحمد إدريس ضاحكاً ومتابعاً :

ـ يوماً أو بعض يوم، ثم نغادرها إلى حيفا . . أليس هذا هو طريقنا الذي سنسلكه يا مولانا؟ .

فابتسم الشيخ عز الدين، وقال مشيراً إلى الشيخ أحمد إدريس :

ـ هذا أخوكم الشيخ أحمد إدريس هو الدليل . . سوف يصحبنا إلى عكا، ومن عكا إلى حيفا، كما قال .

فسأل أحمد إدريس :

ـ ولكن . . من سيؤمن لنا الطريق؟ نحن أم الرجل الطيّب الذي هيأ لنا كل أسباب الراحة في هذا المسجد الجميل؟ .

قال القسام :

ـ لا بأس أن تعلموا، أنَّ الحاجّ خليل الذي ساعدنا في تأمين الإقامة في هذا الجامع العمري، سوف يساعدنا في الوصول إلى صيدا . . هذه هي تعليمات الشيخ كامل القصاب . .

وقام المجاهدون إلى أماكن نومهم في المسجد، ولكنّ الشيخ عز الدين بقي في مجلسه، يرهف السمع لوقع خطوات قادم، وقال في نفسه: لا بدّ أنه الحاج خليل سكّر . . وعندما سمع ثلاث نقرات على الباب، نهض الشيخ القسام مسرعاً، وفتح له الباب، ثم انتحى به زاوية، أطلعه فيها على مجريات الأمور في بيروت، وحدَّثه عن الترتيبات التي اتخذها لسفرهم مساء غد. فسأله القسام:

ـ هل آخذ معي جواز السفر؟ .

فسأله الحاج خليل:

ـ إذن . . لماذا سافرت إلى دمشق، والتقيت صديقك التنوخي، وعرَّضته للخطر باللقاء بك، ثم بتأمين جواز سفر لك؟ .

قال القسام:

ـ أنا لم أعرّضه لأي خطر، لأن رحلتي إلى دمشق كانت سرية، لا يعرفها غيرك، وكنت متنكّراً في الذهاب والإياب! .

فقال الحاج خليل:

ـ وإذا لم تأخذ جواز سفرك لتستفيد منه أنت، فمن يستفيد منه؟ .

فقال القسام ضاحكاً:

ـ يا حاج خليل! لمَ كلّ هذا الكلام؟ قل لي: خذ جوازك معك، وكفى، وسوف تراني ألتزم أمرك، وأخبّئه في عبّي، وأتوكل على الله.

فتضاحك الحاج خليل، وقال:

ـ الدراسة علّمتنا المماحكة، والنقاش، بطعمة ومن دون طعمة!.

وسكت لحظات ثم قال:

ـ غداً، بعد صلاة العشاء، تكونون مستعدِّين، وسوف يكون الحنطور أمام مسجد الإمام الأوزاعي.

ـ وهل ستكون هناك؟.

ـ بل سوف أودّعكم من هنا، وإن كنت سأكون هناك في وداعكم، ولكن من بعيد.. أراكم ولا ترونني. هذه هي تعليمات الشيخ كامل، حفظه الله.

فقال القسام:

ـ إذن.. سوف يحملنا الحنطور إلى صيدا.

ـ وفي صيدا سوف يؤمّن لكم الأخ الذي ستنزلون في ضيافته، قارب صيد يحملكم إلى عكا، إن شاء الله، وسوف يتصل بكم من يحملكم إلى حيفا إن شاء الله.

فقال الشيخ عز الدين في سهوم:

ـ إن شاء الله.. وبورك فيك، وفي شيخنا القصاب!.

ثم نهض الحاج خليل، وودَّع الشيخ القسام، ثم ودَّع الآخرين وخرج.

ـ ١٢ ـ

وصل الشيخ القسام وصحبه إلى حيفا عصر يوم جمعة، من أيام شهر أيلول (١٩٢٠م) وأدّوا صلاة المغرب في جامع الجرينة، وبعد الصلاة، قدَّم الشيخ القسّام درساً بليغاً استأثر باهتمام المصلّين، فقد لفت الشيخ أنظارهم إلى مجموعة من المعاني الإسلامية التي لم يسمعوها من أيّ شيخ من مشايخهم، واستمرّ الدرس حتى أذان العشاء، فما كان من الإمام الذي استمع إلى درس الشيخ، وأُعجب به أيّما إعجاب ـ إلا أن يقدّم الشيخ القسام ليؤمّ الناس، وقد تأثّر الناس بتلاوة الشيخ القسام، وبصوته الحنون، وعندما بكى وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦]، بكوا لبكائه، وعندما تلا قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦] بكى الشيخ حتى علا نشيجه، وبكى معه الناس، وكانت هذه

الصلاة فريدة من نوعها في حياة هؤلاء المصلّين، فهم لم يعتادوا البكاء في الصلاة، ولكنّ الخشوع أخذ منهم كلّ مأخذ. وعندما سلّم الشيخ هجم عليه المصلّون يسلّمون عليه ويتعرّفون إليه، ويدعونه إلى بيوتهم، ليتعشى ويبيت، والشيخ يعتذر لهم ويعدهم بأن يزورهم واحداً واحداً في بيوتهم، في الأيام القادمات.

ونهض الشيخ ليتمّ صلاته، ونهض معه الناس إلى صلاة السنّة والوتر، ثم انصرفوا من المسجد، ولم يبقَ سوى الشيخ وصحبه، فتقدَّم منه قيّم المسجد، ودعاهم إلى المبيت عنده في شقته المتواضعة، فقبل الشيخ، ونام الجميع على الحصير، وهم يحمدون الله على هذا التوفيق، ولكنّ الشيخ الحنفي نغّص عليهم سعادتهم عندما قال:

ـ سامح الله أخانا أحمد إدريس.. لو أنه جاء معنا، ولم يعد إلى سورية.

فقال الشيخ القسام:

ـ لقد ركب رأسه، وصدّق مزاعم الفرنسيين بالعفو عنه..

فسأل ظافر:

ـ هل تعتقدون بأنهم سوف يقتلونه؟.

فأجاب الشيخ عز الدين:

ـ وأرجو من الله أن يعفو عنه، ويكتبه عنده من المقبولين.

فسأل علي الحاج عبيد :

ـ ألا يكون من الشهداء إذا قتلوه؟ .

أجاب الشيخ :

ـ أرجو من الله أن يقبله شهيداً . . إنه رجلٌ طيّب . . ومخلص . . ومجاهد شجاع .

فقال علي الحاج العبيد :

ـ ولكنّه أبطل عمله، بوثوقه بأعداء الله .

فقال له الشيخ عز الدين :

ـ لا تقل هذا يا أخي . . وادعوا لأخيكم بالقبول عند الله .

وقال عبد الملك القسام، وهو مستلقٍ على قفاه فوق الحصير :

ـ والأسرة يا شيخ عز الدين؟ .

فتساءل الشيخ عز الدين عن أيّ أسرة يتحدّث عبد الملك، فهناك أسر كثيرة، فأجاب :

ـ عن أسرتك يا شيخ . . أم أنك نسيت أنّ لك أسرة؟! .

قال الشيخ :

ـ الأمر بسيط .

ـ كيف؟ .

ـ إنها مرتاحة في الحفّة عند الأهل .

فسأل عبد الملك :

ـ أيّ أهل؟ .

فقال الشيخ :

ـ كلّ أهل الحفّة أهلها وأهلنا يا عبدو .

فسأل الحاج خالد :

ـ ألا تسمح لنا بالتصرّف يا شيخ عز الدين؟ .

ـ كيف؟ .

ـ يعني . . بإمكاننا إحضارها، بوساطة .

فقاطعه الشيخ قائلاً :

ـ لا يا شيخ . . نحن نعتمد على الله في سائر أحوالنا، ولا يجوز لنا أن نطلب شيئاً من المتعاونين مع الفرنسيين .

قال خالد :

ـ لا بدّ ممّا ليس منه بدّ يا شيخ عز الدين .

أجاب الشيخ بحدّة :

ـ بل منه ألف بدّ . . ما لم يكفّ أولئك الخونة عن التعامل مع الأعداء الفرنسيين، فلن يكون بيننا وبينهم أيّ كلام . . حتى السلام لن نلقيه عليهم .

ـ ولكنّهم يحبّونك، ويريدون خدمتك! .

فأكّد لهم الشيخ أنه لا يحبّهم، ولا يلومهم إذا لم يحبّوه، فهم في طريق جهنّم . . طريق الخيانة، وهو يسير في طريق الجنة، ولهذا فهو يرفض التعامل معهم، وليحتفظوا بحبهم لأسيادهم الغرباء، وهو وكلُّ مجاهد، وكلُّ المجاهدين يرفضون أيّ مساعدة تأتي عن طريقهم، ما داموا يخدمون المحتلّين، ويوقعون بأبناء دينهم، وأبناء جلْدَتهم، وأبناء وطنهم .

ثم استلقى على ظهره، وأغمض عينيه، وهو يقول :

ـ ناموا الآن يا إخوة، واستريحوا، وكونوا متوكّلين على الله حق التوكل، يحلّ لكم كل مشكلاتكم .

فقال علي الحاج العبيد :

ـ لنا مشكلة واحدة، هي أولئك المحتلون . .

فابتسم الشيخ، ولم يردّ عليه، بل قال :

ـ أطفئوا السراج إذا سمحتم . . نريد أن ننام .

في مساء اليوم التالي، وبعد أن أدَّوْا صلاة العشاء، جلس الشيخ مع أصحابه، وقال لهم:

ـ سوف نفتّش لنا عن بيت متواضع، لنسكن فيه.

فسأل الحاج خالد:

ـ متى يا شيخ عز الدين؟.

ـ غداً إن شاء الله بعد الفطور، تذهب أنت يا سيد خالد، مع قيّم المسجد، للتفتيش عن بيت.. واعتباراً من الغد أيضاً، سوف يفتش كلّ واحد منا عن عمل، لنعتاش منه.

فعاد خالد إلى موضوع الأمس، وسأل:

ـ والأسر؟.

فطمأنه الشيخ قائلاً:

ـ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. صدق الله العظيم.. وأحسبكم جميعاً، يا إخوة، من الأتقياء الصالحين.. ولسوف يسخّر الله لنا، من يأتينا بزوجاتنا، وأولادنا.. والمطلوب هو الصبر.. أن نصبر قليلاً حتى يأتينا الفَرَج.

وفيما هم يسمرون ويتحدّثون، إذا بالباب يقرع، فأسرع علي

الحاج العبيد يفتح الباب، وإذا رجلٌ من روّاد المسجد، تبدو عليه سيماء الصلاح، فرحَّب به العبيد، ودعاه للدخول، فدخل، ووجهه مطمئن، وعيناه حالمتان، فهبّ الشيخ وإخوانه للسلام عليه، والترحيب به، وعندما استقرَّ به المقام قال:

ـ معذرة يا فضيلة الشيخ، حضرت من دون استئذان، ومن دون موعد سابق!.

فأعاد الشيخ ترحيبه به، وقال:

ـ وهل بين الإخوة تكليف؟.

فقال الرجل الوقور:

ـ على سنّة أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صَ: ٨٦]، وقد قلتها أنت يا فضيلة الشيخ.

فقال الشيخ مبتسماً:

ـ اسمي عز الدين القسام.. وليس بين الإخوة رسميّات في علاقات بعضهم مع بعض.

قال الرجل الوقور:

ـ الحمد لله يا شيخ عز الدين.. أنت تسهّل عليّ مهمتي.

قال الشيخ عز الدين:

ـ أيّ مهمة يا أخي؟ .

ـ أن تقبلوا دعوة أخيكم الفقير إلى الله، المحتاج إلى صداقتكم وأخوّتكم وعلمكم .

ـ لم أفهم .

ـ بل فهمت يا شيخ عز الدين . . نحن إخوة في الله، والأخ لا يردّ دعوة أخيه .

ـ أرجو أن تفصح يا أخي! .

قال الرجل الوقور :

ـ عندي بيت فيه ثلاث غرف، بإمكانكم أن تسكنوه .

قال الشيخ عز الدين :

ـ كنّا نتحدَّث قبل قليل عن استئجار بيت يتّسع لنا . . بيت متواضع، في حي متواضع من أحياء حيفا .

قال الرجل :

ـ بل تنزلون عندي ضيوفاً إلى ما شاء الله! .

قال الشيخ :

ـ الضيافة ثلاثة أيام، أمضينا منها اليوم ويوم أمس، وغداً نرحل إلى بيتنا الجديد إن شاء الله! .

فمدّ الرجل الفاضل يده إلى عبّه، وأخرج صرّة نقود، وقدّمها للشيخ على استحياء، فردّها الشيخ شاكراً له صنيعه هذا، وقال في ودّ:

ـ نحن شباب والحمد لله، والعمل شرف للرجال، والإسلام يأمرنا بالعمل، وجزاك الله كلَّ خير يا أخي، فقد حصل لك الأجر إن شاء الله!.

وعندما خرج الرجل الفاضل، وخرج معه الشيخ مودّعاً، حاول إعطاءهُ الصرّة من جديد، وهو يقول:

ـ خذها يا سيّدي الشيخ الفاضل، وعندما تعملون تردّونها إليّ!.

ولكنّ الشيخ أصرَّ على إعادتها، لأنَّ معهم ما يكفيهم، وقال له:

ـ حصل لك الأجر إن شاء الله تعالى يا أخي!.

وعاد الشيخ إلى إخوانه وهو يقول:

ـ يبدو أن الشيخ كامل عرف كيف يختار.

فسأله الشيخ الحنفي:

ـ يختار ماذا؟.

ـ يختار لنا حيفا للإقامة فيها، والانطلاق منها، للجهاد في سبيل الله، فأهلها، كما لاحظتم، أناس طيّبون جداً، والله أعلم.

فقال الحاج خالد:

ـ هذا واجبهم تجاه ضيوفهم يا شيخ عز الدين.. كلّ العرب

يكرمون ضيوفهم مثل إكرامهم وزيادة.

قال الشيخ عز الدين:

ـ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾! [يوسف: ٨١].

قال الحاج خالد:

ـ هل تذكر أفواج اللاجئين الذين لجؤوا إلينا، هاربين من الحرب، وأحياناً هاربين بأرواحهم ونسائهم وأولادهم من الفتن والحروب الأهلية والمشاجرات؟ ألم نستقبلهم نحن؟ ألم تستقبلهم أسرنا وعائلاتنا؟ مع أنهم ليسوا مثلك من العلماء ولا من المجاهدين!.

وقال الشيخ الحنفي:

ـ إكرام الضيف واجب، ولكن.. ليس كلّ الناس يقومون بهذا الواجب.. بعضهم يتهرّب منه.. وبعضهم يشكّك بالغرباء..

فسأل علي الحاج العبيد:

ـ حتى لو كانوا علماء مثل الشيخ عز الدين؟

ـ حتى لو كانوا من العلماء الذين يرتاح المرء لهم، ولهيئتهم، ولنور الإيمان في وجوههم.. بل حتى لو كانوا يعرفونهم، وكانوا من إخوانهم.

فرفع الشيخ عز الدين يده، وأشار بكفّه أن يكفّوا، ثم قال:

ـ يا إخوان.. الناس معادن.. فيهم الأصيل كالذهب الإبريز، وفيهم الوضيع والخسيس كالتنك.. والتعميم مرفوض، ولكل قاعدة شواذّ.. فليس كل العرب كرماء، وليس كلّ أهل جبلة أصحاب أريحية وكرم، ولكنّ الصفة الغالبة على أبناء شعبنا هي صفة الكرم.. والأخسّاء قلّة نادرة.. والظاهر أنّ أهل حيفا كأهل جبلة في الكرم، وفي استقبال الضيوف وإكرامهم.. فهذا الرجل الفاضل جاء يعرض علينا ضيافته في بيته، ثم عرض علينا المال، وعندما خرجت أودّعه، ألحَّ عليَّ في قبوله، ولو على سبيل القرض الحسن.. أفلا نشكر له صنيعه هذا؟.

قال الحاج خالد:

ـ من لم يشكر الناس لم يشكر الله.. نحن نشكره على الواجب الذي قام به تجاهنا يا شيخ عز الدين، كما نشكر قيّم هذا المسجد على استضافته لنا، على ألاّ نبالغ، حتى لا نُصْدَم إذا واجهنا خسيساً ما.

قال الشيخ عز الدين:

ـ لن نقابل إلا كراماً إن شاء الله. والشيخ كامل يعرف أهل حيفا جيداً، وهو ما اختارها لنا عبثاً، لأنه سوف يلحق بنا، ويكون معنا مجاهداً ومعيناً إن شاء الله، وسوف نغضّ الطرف عن الهفوات التي سوف تصدمنا، لأننا أصحاب رسالة.

قال الحاج خالد :

ـ أعانكم الله . . وسوف ترون مَن يقف في طريقكم، ويرفض جهادكم معه، زاعماً أنَّ أهل مكة أدرى بشِعابِها! .

قال الشيخ عز الدين :

ـ لن نأبه بالتافهين من أصحاب هذا القول، ففلسطين في أعناق كلّ المسلمين، وليست ملكاً لفلان أو علاّن من الجاهلين أو الغافلين أو المتسلّقين . . نحن أهل مكة، ونحن أهل حيفا والقدس، ونحن أهل فلسطين . . بهذه الروح نتغلّب على التافهين والحاسدين، نتسامح معهم من أجل أداء رسالتنا الجهادية . . لا نطمع بما في أيديهم، ولا نزاحمهم على منصب، ولكننا ننافسهم في الجهاد، وفي دعوة الناس إلى التصدّي للإنكليز واليهود وأعوانهم .

ـ ١٤ ـ

لم تغب شمس اليوم التالي، حتى استقرَّ الشيخ وإخوانه في بيت متواضع في حارة شعبية . . وكانوا سعداء في استئجاره، ليعيشوا معاً . كان البيت من الصفيح، ولكنَّه لمّ شملهم، وصار بإمكانهم أن يفكروا بهدوء، فيما ينبغي عمله، من أجل أداء المهمّة التي نَدبوا أنفسهم لها .

قال الشيخ عز الدين :

ـ لا بدَّ من التفتيش عن عمل كريم لكلٍّ واحد منّا .

فابتسم الشيخ الحنفي وقال :

ـ كلُنا عمال . . نستطيع أن نعمل في الميناء، في المزارع، في السوق، في أيّ عمل شريف .

وقال علي الحاج عبيد :

ـ اطمئن يا شيخ عز الدين، فلن تغيب شمس الغد، حتى يكون لكلٍّ منا عمل يكسب منه .

فقال الشيخ عز الدين :

ـ وشيخكم؟ ألا يعمل؟

ـ بل يعمل فيما هو أهل له . . في تثقيف الناس، وتعليمهم أمور دينهم، وواجبهم تجاه وطنهم .

قال الشيخ :

ـ هذا تحصيل حاصل، وإلا ما كنا جئنا إلى هنا . . أريد عملاً أكسب منه رزقاً حلالاً طيّباً .

قال الحنفي :

ـ نحن نكفيك هذا .

فقاطعه الشيخ بقوله :

ـ لا يا شيخ محمد . . أنا أعمل مثلكم . . إلا إذا كنتم توافقون على أوضاع المشايخ في أريافنا . .

كان الحاج خالد متكئاً، فجلس وقال :

ـ سوف أطلب من البلد أن يرسلوا إلينا شيئاً ممّا تركته هناك .

قال الشيخ معلّقاً :

ـ هذا لا يمنع من العمل . . فنحن محتاجون إلى المال، ومحتاجون إلى الاتصال بالرجال، ومحتاجون إلى التعرّف على الناس، وإلا، فلن نستطيع فعل شيء .

وفيما هم يتحاورون، سمعوا أصواتاً خارج المنزل، فأنصت الشيخ، وطلب من إخوانه أن ينصتوا، ثم هبَّ واقفاً وقال :

ـ هذا صوت الشيخ كامل القصاب .

وقبل أن يصل الشيخ القسام إلى الباب الخارجي ليفتحه، سمع قرعاً خفيفاً على الباب، فصاح القسام :

ـ أهلاً بالشيخ كامل . . أهلاً بالأخ الحبيب .

دخل الشيخ كامل، بطلعته النورانية، فاستقبله إخوان القسام بما هو له أهل، فقد طال ما تمنّوا لقاءه، بعدما سمعوه من شيخهم عنه .

سأل الشيخ كامل عن أحوالهم، وعن أعمالهم، وعن رحلتهم من

الحفة إلى حيفا، ثم قال:

ـ أنت يا شيخ عز الدين، سوف تغيّر رأي الناس في المشايخ.

فسأل الحاج خالد:

ـ كيف يا مولانا؟.

أجاب الشيخ كامل القصاب:

ـ نظرة الناس إلى المشايخ وعلماء الدين غير سليمة، غير صحيحة، إنهم أخذوها من مشاهداتهم لمشايخ هذا الزمان، أو لبعض المشايخ على الصحيح، وأنتم من جملة الناس الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة امتهان، إلى أن رأيتم هذا الشيخ القسّامي المجاهد، فتغيَّرت نظرتكم، أليس كذلك؟.

فقال الحاج خالد:

ـ ليس إلى كل المشايخ..

ـ صحيح.. ولكنَّ هذه النظرة السليمة ستشمل كل المشايخ، بجهود الشيخ عز الدين إن شاء الله!.

فقال الشيخ عز الدين في حياء جمّ:

ـ بل بجهودكم يا مولانا، فقد ضربتم المثل تلو المثل في الجهاد، في سورية، وفي لبنان، وفي فلسطين.

فقاطعه الشيخ كامل قائلاً:

ـ على رسلك يا شيخ عز الدين، فأين نحن من المجاهدين؟.

ـ بل أنت شيخ المجاهدين في هذا العصر يا شيخ كامل.

قال الشيخ كامل:

ـ المجاهدون، يا شيخ عز الدين، هم أولياء الله وأحبّاؤه، وهم صفوة خلقه، وخلاصة عباده.. المجاهدون هم الذين طلّقوا دنياهم، وأقبلوا على الله بنفوس صافية.. وقلوب نقيّة عامرة بحبّ الله، وعجلوا إلى الله، مختصرين الطريق إليه، فليس أقصر من طريق الجهاد والاستشهاد، وليس أوصل منه إلى النعيم المقيم في الفردوس الأعلى!.

ولمح القسام وإخوانه تلألؤ دمعات على لحية الشيخ القصاب، فقال الشيخ الحنفي:

ـ إذا لم تكن أنت يا سيّدي، والشيخ عز الدين، من المجاهدين، فمن نكون نحن؟! وأين نكون؟!.

قال الشيخ عز الدين:

ـ التواضع، والكرم، والبذل في سبيل الله، هي ثمرات العلم الذي يعمر قلب الشيخ كامل، والعقيدة السليمة التي يعتنقها، وأسأل الله أن يكتبنا عنده من المجاهدين، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله!.

تنحنح علي الحاج عبيد، فتوجَّهت نحوه العيون، لأنهم يعرفون عادته عندما يهمّ بالكلام. قال عليّ:

ـ سمعتُ الشيخ عز الدين يقول: أحبُّ الصالحين ولستُ منهم. فقلتُ له: يا شيخ عز الدين هذا الكلام يليق بي وبأمثالي، وليس بك. فقال الشيخ عز الدين: آه يا شيخ علي، لو رأيت الشيخ كامل القصّاب، لعرفت أني صادق فيما أقول.

فابتسم الشيخ كامل وقال:

ـ ها أنت ذا رأيت القصّاب، فماذا رأيت؟.

قال ابن العبيد:

ـ رأيت شيخاً ينطق وجهه بالإخلاص والصدق، فهل تحدّثنا يا سيّدي عن حياتك؟.

فقال الشيخ عز الدين:

ـ حياة الشيخ حافلة، والشيخ متعب من السفر، والأولى أن نتركه ينام، وفي الغد وفي الأيام القابلة تكون لنا معه أحاديث وأحاديث.

فقال الشيخ كامل:

ـ أولاً: أنا لستُ متعباً، ومستعدٌّ للسهر معكم حتى مطلع الفجر.

ثانياً: أنا ما جئتُ لأحدّثكم عن حياتي التي لا تستحقّ أن تأكل أوقات راحتكم.

ثالثاً: أختصر لكم حياتي، بأني كنت في شبابي الأول من فتوّات دمشق وزعرانها، ثم هداني الله، فأكببْتُ على طلبِ العلم، حتى حصلتُ منه بعضه، ثم انخرطت في الحياة العامة، وشاركتُ في العمل السياسي، حتى وصلتُ إليكم. ألا يكفيكم هذا يا أخي؟.

فقال الشيخ القسام:

ـ وكنتَ المحرّض على قتال الفرنسيين الغزاة في ميسلون، وشاركتَ في صدّهم عن دمشق، ثم اتصلتَ بكل المجاهدين والثائرين على الفرنسيين في حلب والغوطة وجبل صهيون، وجاهدت بمالك ونفسك وعلمك في سبيل الله.

قال الشيخ كامل:

ـ يكفي يا أخي، أخشى أن يصدّقوك.

فقال الشيخ عز الدين لإخوانه:

ـ أنا صادق في كلّ كلمة قلتها يا إخواني، وفي اختصار شديد، لقد تعلّمتُ من الشيخ كامل، أنَّ مشكلة المشايخ في ابتعادهم عن السياسة.. إنهم يقولون: السياسة نجاسة، وهذا خطأ.

فاستلم الشيخ كامل الحديث وقال:

ـ والمشايخ، بهذا الشعار الذي طبّقوه على حياتهم العملية.. يبتعدون عن الحياة، ويتركونها لخصومهم، ليصوغوها كما يحبّون.

إنَّ المشايخ ـ بهذا السلوك ـ يحققون هدفاً حيوياً لأعداء هذه الأمة، الساعين إلى إبعاد السياسة عن الدين، متأثّرين بأوروبة التي فصلت ما بين السياسة والدين، فلا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين، ناسين أنّ رسول الله ﷺ كان نبياً ورسولاً وكان قائداً للجيوش، وكان حاكماً للمسلمين، وكذلك كان خلفاؤه من بعده، رضي الله عنهم ورضوا عنه . .

وهذا الوهم تمكَّن من نفوسهم وعقولهم، والأوروبيون ساعدوا على تأصيله في ثقافتهم وسلوكهم، فصاروا ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويقولون مثل البيغاوات: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، كأنَّ في الكون شيئاً ليس لله . .

وقال الشيخ القسام:

ـ وتعلَّمتُ من الأزهر، ومن جمال الدين وتلاميذه، ومن شيخنا القصاب، أنه من دون سياسة ونضال وكفاح وجهاد، لا يمكن تحرير البلاد. . ولكن. . أيّ سياسة؟

إنها السياسة المبدئية القائمة على الأخلاق، السياسة النظيفة، البعيدة عن المكاسب الشخصية، والتطلّعات الفردية، والبعيدة عن المناورات الخسيسة، والارتباط بالأجنبي وبالدخلاء.

وقال الشيخ كامل القصاب، كأنه يتابع الحديث:

ـ وما فسد السياسيون إلا لابتعادهم عن الدين ومبادئه الفاضلة،

وما ظهر المشايخ بهذا المظهر المتخلّف، إلا لفهمهم القاصر وغير السليم للسياسة والدين معاً..

فالدين.. ديننا الإسلامي، هو دين جهاد وسياسة ونضال، وسياستنا نابعة من مبادئنا، ومن قيمنا الإسلامية العربية الماجدة.

فسأل الحنفي:

ـ وإذا حدث تناقض بين الدين والسياسة؟.

فأجاب القسام:

ـ فنحن مع الدين.. السياسة خاضعة للدين، تابعة له، وليس العكس..

وقال الشيخ كامل:

ـ كلُّ حركة وفكرة، وتحالف سياسي، ينبغي أن يكون خاضعاً للدين، وتابعاً له، كما قال الشيخ عز الدين، فإذا تعارضا فنحن مع الدين.. افهموا هذا جيداً، وقد كرّرتُ ما قاله الشيخ عزّ الدين، لأؤكده لكم، ونحن نمارس مبادئ ديننا الحنيف، من خلال عملنا السياسي والنضالي، وقد، بل سوف نفترق عن السياسيين والأحزاب السياسية القائمة، لأنني أراها بلا مبادئ ولا تأمر بأوامر هذا الدين.

فقال علي الحاج عبيد:

ـ ولكنهم يعلنون تمسّكهم بالمبادئ الوطنية، والتحرير، و...

فقاطعه الشيخ كامل بقوله:

ـ إنني أراهم يعلنون شيئاً، ويفعلون شيئاً آخر.. إنهم يمارسون سياسة وطنية قبيحة.. خطاباتهم، وتصريحاتهم في وادٍ، وأفعالهم في وادٍ آخر.

فسأل الشيخ الحنفي:

ـ هل نقتحم عليهم أحزابهم يا مولانا؟.

فقال الشيخ القسام:

ـ لا.. دعوهم.. نحن سوف نتوجَّه بدعوتنا وحركتنا نحو سائر فئات الشعب، وفي شعبنا العربي المسلم خامات كثيرة، وطاقات كبيرة تحتاج إلى من يفجّرها.. تحتاج إلى القائد، كما تحتاج إلى المجاهدين المؤمنين بقضيتهم.. عندئذ يتحرك الناس نحونا، من الحزبيين ومن غير الحزبيين.

وقال الشيخ القصاب:

ـ أرجو يا شيخ عز الدين، أن تزرع أنت وإخوانك، شجرة الحقد المقدَّس في قلب الشعب على هؤلاء الغزاة من الإنكليز ومن اليهود على حدٍّ سواء.. يجب أن يبغضهم الشعب، ويحقد عليهم، وعندئذ، يسهل عليكم حربهم، والتخلص منهم..

قال الشيخ القسام:

ـ يا ليتك تبقى معنا يا مولانا، فنحن في حاجة إليك . . إلى آرائك السديدة، وإلى علاقاتك، وإلى علمك، وإلى فهمك ووعيك وإخلاصك . .

قال الشيخ كامل :

ـ أنا معكم . . سأكون معكم . . وسوف أبذل قصارى جهدي في إنجاح مهمتكم، وأنا أدرس مع بعض إخواني هنا في حيفا، إقامة مشروع تجاري في حيفا، وآخر في القدس، يسهّل عليّ الإقامة هنا، والتنقل في بلاد العرب، خدمة لقضايانا . . فهل لديكم ما تقترحونه عليّ؟ .

قال الشيخ عز الدين :

ـ الطموحات كبيرة والإمكانات قليلة .

وقال علي الحاج عبيد :

ـ يعني . . العين بصيرة، واليد قصيرة .

فقال الشيخ كامل :

ـ اصبروا يا إخواني وسوف يكون الفَرَج مع الصبر والتوكل على الله الكريم .

وقال الشيخ الحنفي :

ـ آه . . لو كان للشيخ عز الدين مسجد في وسط البلد، لجمع

الناس حوله، كما فعل في جبلة.

فابتسم الشيخ كامل وقال:

ـ وهذا من جملة المشاريع في رأسي.. أن يكون للشيخ عز الدين مسجد ومدرسة مستقلان عن السلطات هنا، ولا يد للأوقاف ولا للمعارف فيهما، ولا سلطة لهما عليهما.

فهتف الشيخ القسام:

ـ بارك الله فيك يا شيخ كامل.. والله إنَّ هذا هو الذي يدور في رأسي، منذ حططنا الرحال هنا في حيفا.

فقال الشيخ كامل:

ـ وقد اخترت للمسجد المأمول اسم جامع الاستقلال.. وللمدرسة التابعة له اسم مدرسة الاستقلال، لعلَّهما يكونان مركز إشعاع ثقافي وسياسي جهادي في فلسطين.

فقال علي الحاج عبيد:

ـ وتقول يا سيدي: إنك لستَ من المجاهدين؟.

فقال الشيخ كامل:

ـ المهمّ.. أن لا تقوم لليهود دولة.

ـ والمهمّ.. أن تكون الأعمال سابقة للأقوال، أو لاحقةً بها، فقد

شبع الناس من الكلام.

والمهمّ.. أن تكونوا القدوة للناس، فالناس يحتاجون إلى القدوة، ويفتّشون عنها، ولا يرونها.

والمهمّ أن ننقل القضية من مرحلة الكلام والمزايدات السياسية الرخيصة، إلى مرحلة العمل الحاسم للإنقاذ والتحرير، فالعدوّ ساهر على قضيّته، وعلى تحقيق أهدافه، والعرب والمسلمون نائمون..

وقال الشيخ القسام:

ـ والمهمّ.. أن نعلي شرف هذه العمائم..

والمهم.. أن نعرف كيف نموت كراماً..

فقال الشيخ كامل مستدركاً:

ـ أو أن نعيش ونحيا أعزّة كراماً، بإحكام الخطط، ودقّة التنفيذ، فعين العدوّ مفتوحة، ويا ويل الغافلين.

قال الشيخ الحنفي:

ـ هذا رائع.. رائع..

وعلّق ابن العبيد:

ـ آه لو كان كل المشايخ مثل الشيخ القصاب والشيخ القسام، إذن لكانت أوضاع العرب والمسلمين على غير ما هي عليه.

فقال الحنفي :

ـ ولكنّا أصحاب الكلمة العليا ، والإنكليز واليهود ومن يشايعهم ، أصحاب الكلمة السفلى .

قال الشيخ كامل :

ـ الأمر مخطَّط . . ولم يَصِر المشايخ إلى ما هم فيه من هوان ، ومن تعلّق بالقشور دون اللباب ، ومن إقبال على الدنيا وطيّباتها ، ومن بُعد عن الآخرة ، بالمصادفة . . أبداً ليس الأمر مصادفة ، ولو فهم المشايخ هذا الإسلام حق الفهم ، لكانت المساجد معاهد لتخريج العلماء المجاهدين ، ولتحوّلت المحاريب والمنابر إلى بؤر ثورية ، يتلقّى المسلمون منها أوامر جهادية يوميّة كفيلة بطرد الإنكليز واليهود . . ولكن . . يا حسرة على العباد ! .

وقال الشيخ عز الدين :

ـ سوف تعود للمسجد رسالته ووظيفته يا سيدي ، وسوف يضطلع العلماء ويتعاهدون ويتواثقون على حمل راية الجهاد ، والنهوض بالمسلمين ، من خلال رسالة المسجد إن شاء الله .

فقال الحاضرون بصوتٍ واحد :

ـ إن شاء الله .

ـ وسوف نزيل ركام القرون ، ونصحّح المفاهيم ، حتى يعود للدين

مجدُه وزهوُه وسلطانه على المسلمين.

ـ إن شاء الله.

ـ ١٥ ـ

برغم الصعوبات والمشاقّ التي كان يواجهها القسام وصحبه، كانت تبدو عليهم السعادة، خاصة بعد أن جاءتهم أسرهم من سورية، فقد تبرّع سائق من بيروت، فأدخل أسرة الشيخ في جواز سفره، وعبر بها إلى حيفا، كما قام بعض الأصدقاء السوريين بمهمة إحضار الأسر الأخرى.

ونزلت كلُّ تلك الأسر في بيت واحد، لأنهم لم يكونوا يملكون أجرة بيت لكل أسرة، وكانت سكناهم في الحيّ القديم من حيفا، وهو حيٌّ شعبيٌّ يقطنه العمال والفلاحون الفقراء الذين جاؤوا من قراهم التي استولى عليها اليهود القادمون من الخارج بمساعدة الإنكليز.

وقد أبدى الشيخ اهتماماً كبيراً بأولئك الفقراء الأميين، فعمل على تحسين أحوالهم المعيشية، وعلى الارتفاع بعقولهم وعواطفهم. واهتماماتهم، وفتح لهم مدرسة ليلية، ليست أكثر من غرفة متواضعة، كان يعلّمهم فيها القراءة والكتابة، ويبثّ تعاليمه الجهادية خلال تلك الدروس، فأحبّه هؤلاء البسطاء الفقراء حبّاً عظيماً، في فترة زمنية قياسية.

كان وقت الشيخ مكتظاً بالعمل، ففي النهار يعمل إماماً لمسجد، ويلقي دروسه فيه، ويزور الناس في بيوتهم، ومحلاّتهم وأماكن عملهم، وفي الليل يعلّم الأميين، ولا يكاد يتفرّغ لبيته، كأنه كان يسابق الزمن والأجل، وهو يقارن بين الجهود التي يبذلها اليهود والإنكليز، وبين الجهود التي يبذلها الفلسطينيون والعرب، من أجل فلسطين.. كان يرى الفروق الكبيرة بين الفئتين المتنافستين، فقد كان أهل الحقّ جهلة ومتقاعسين، وأهل الباطل لا ينامون في سبيل باطلهم..

ولشدَّ ما حزّ في نفسه، إصرار الحاج خالد على العودة إلى سورية، ليتابع جهاده هناك، ويقدّم للشيخ وإخوانه كل ما يستطيع من مال، لأنّ حركة الشيخ وطموحاته تتطلب الأموال الطائلة، وكان الشيخ يحاول إقناعه بشتّى الوسائل والأساليب، حتى عيل صبره، ونفِدت طاقته، فتركه لمصيره الذي طالما حذّره الشيخ منه.

عاد الحاج خالد إلى الحفّة، فألقى الفرنسيون القبض عليه، وأعدموه بطريقة بشعة، تتناسب مع إنسانية الغربيين وأخلاقهم، فقد جمع الفرنسيون أهل القرى، وسكبوا الكاز على الحاج خالد، وأحرقوه حياً أمامهم.

وعندما وصل الخبر إلى الشيخ، بكى، وترحَّم على الحاج خالد، ودعا له ليكتبه الله عنده من الشهداء، ولا يكتبه ممن يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وتحدّث الشيخ بهذا الحادث الأليم، وربط بينه وبين ما يجري على الأرض الفلسطينية، وبين الفرنسيين والإنكليز، فهؤلاء ملة واحدة، وما فعلوه بالحاج خالد، فعلوا أكثر منه هنا في فلسطين، وفي سائر البلاد الخاضعة لاستعمارهم، والناس المستعمَرون في غفلة عن هذا..

وكان تعاطف الناس مع الشيخ، وانفعالهم بدروسه عظيمين، الأمر الذي جعلهم يسعون ليكون إمام الجامع الكبير وخطيبه، وجعلهم يكلمون الشيخ في الانتقال من ذلك البيت المتواضع المبني من الصفيح الذي يشتعل بحرارة الصيف، ولا يردّ برودة الشتاء، ولكنَّ الشيخ طمأنهم عن حاله وحال إخوانه الذين هاجروا معه، وهم يعملون في الميناء، وفي الزراعة، والحمد لله، ثم قال لهم:

ـ مشكلة الشيخ وإخوانه محلولة، نريد حلاً لمشكلة فلسطين، فالهجرات اليهودية على قدم وساق، والإنكليز يمهّدون لهم لإقامة وطنهم القوميّ المزعوم.. إنّهم يصادرون الأراضي التي لا يستطيعون شراءها، ويقدّمونها لليهود القادمين من سائر أنحاء الأرض، والأراضي التابعة لأملاك الدولة، يعطونهم إياها بالمجّان، وهم يدرّبون شبابهم من رجال ونساء، ويسلّحونهم، ويبنون لهم المستعمرات التي هي ثكنات عسكرية بكل معنى الكلمة.. هنا المشكلة، وليست المشكلة في كيف يعيش الشيخ وإخوانه وعائلاتهم..

كان الشيخ عز الدين عفيفاً، صلباً في هذا الموقف بالذات، وكان

يقول لإخوانه: ازهدوا بما في أيدي الناس، يحبّكم كلُّ الناس، وكان هو القدوة في هذا، فسار إخوانه على نهجه، فأتعبهم مع أسرهم، ولكنهم كسبوا محبّة الناس واحترامهم، وحفظوا كرامتهم وعزّة نفوسهم.

-١٦-

كان الشيخ عز الدين عاقلاً، بعيداً عن التهوّر.. وكان يعرف أنه غريب، في عُرف بعض الناس، وقد تكون غربته مدعاة للحسد، خاصة بعدما لاحظ احتفال معارفه به، من رواد مسجد الاستقلال، ولهذا قرّر أن يكون صبوراً حكيماً، حتى لا يقع فيما لا يريد الوقوع فيه، مما يبعده عن مهمته الجهادية، وكان يوصي إخوانه بما يوصي به نفسه وأهله، ويردّد على مسامعهم الحديث الشريف الذي أدّب رسول الله ﷺ أصحابه به: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعُهم منكم حُسْنُ الخُلُق».

كما يردّد هذا البيت الذي حفظوه مع الحديث النبويّ لكثرة ما سمعوهما:

إذا لـم تتسـع أخـلاق قـوم تضيـقُ بهـم فسيحـاتُ البـلاد

وأراد الشيخ أن يوسّع دائرة معارفه في المدينة، فذهب إلى المدرسة الإسلامية، وتعاون معها، وشاركها في تعليم الأطفال، وعن هذا الطريق تعرّف إلى التلاميذ، وإلى آبائهم وإخوانهم وأقاربهم، كما تعرّف إلى المعلّمين، واكتسب قلوبهم بسرعة، لما تميّز به من زهد

وتواضع وعلم، فكانوا يرون فيه العالم المحبوب، الزاهد في أيّ شيء يتطلّعون إليه، والزاهد في مأكله وملبسه. . . وعندما زاروه في بيته رأوه بيتاً متواضعاً كبيوت الفقراء الآخرين، ورأوا بيته مطروقاً من فقراء العمال والفلاحين، يستقبلهم بابتسامته التي لا تفارق شفتيه، ويداعبهم ويمازحهم ويضاحكهم ويحرص على زيارتهم ومجالستهم، بعيداً عن الأضواء التي يتهافت عليها غيره، فعندما كان بعض المشايخ يتهافتون على المناصب، ويتنافسون في احتلال المراكز وحضور المؤتمرات، كانوا يرون الشيخ القسام مع رفاق العقيدة والمبدأ والسلاح، يعلّمهم، ويوجّههم ليسهموا في نشر رسالته بين الفلاحين الأميين الذين صاروا يقرؤون ويكتبون، ويعرفون بعض تعاليم دينهم، بل إنهم ليرون الشيخ القسام نفسه، يساعد الفلاحين في زراعتهم وفلاحتهم، كأنّه فلاح مثلهم، وواحد منهم. بل كان، كما وصفه الشيخ القصاب لأصحابه التجار من أهل حيفا:

ـ الحقّ. . أنّ الشيخ القسام شخصية شعبية جماهيرية جذّابة محبوبة.

وهو حسن السيرة والمعشر، يتصل بسائر فئات الشعب، متدينين وغير متديّنين، ويجالسهم في المساجد والبيوت والمقاهي، ويزورهم في المآتم والأفراح والمضافات، مما أثار بعض المتزمتين عليه، ولكنه لم يأبه لهؤلاء، لأنه صاحب رسالة يسعى إلى تحقيقها بكلّ الأساليب والطرق النظيفة. . وكانت تتوارى خلف هذه الشخصية الشعبية

المحبَّبة، شخصية تنظيمية فذّة، فبعد أن اجتمع عليه الناس في جامع الاستقلال الذي جعل منه مدرسة إسلامية فريدة، بحيث كان الناس يتوافدون إليه من سائر أحياء المدينة وقراها، ليستمعوا إلى خطبة الجمعة، أو إلى دروسه الحيّة، أو لحضور مجالس الذكر، ومجالس الصلاة على النبيّ ﷺ، التي كان يقيمها في المسجد، ليبثّ من خلالها ما يريد من فكر جهادي، وتربوي، وسياسي، وبعد أن وثّق صِلاته بالقرى التي كان يزورها، ويقيم علاقات الأخوّة والصداقة فيها . .

بعد كلّ هذا، وأثناءه، بدأ الشيخ يشكّل تنظيمه السري، ويختار له مَن يثق به من الشبان والشيوخ والكهول، لتهيئتهم من أجل القيام بعمل مسلّح، يستطيع الوقوف في وجه اليهود والإنكليز معاً.

كان هذا في الوقت الذي كانت الثورة في سورية تجتاح الاستعمار الفرنسي، وكان القسام يضع اللبنات الأولى لتنظيمه السري، وكان يربّي أعضاء التنظيم تربية خاصة صارمة، على التمسّك بأهداب الدين، والتفقه بأحكامه، ومعرفة الحلال والحرام، والابتعاد عن الشبهات، كما كان يؤكّد لهم على معاني السرية والكتمان، ويأتيهم بالشواهد الكثيرة على أهمية الكتمان، من حديث الرسول ﷺ ومن حياته العملية، ومن حياة أصحابه، كما كان يدرّبهم على استخدام السلاح، ويلحّ عليهم في شرائه واقتنائه ومعايشته، ليكون جزءاً من حياتهم، يبادلونه حبّاً بحبّ، وعشقاً بعشق، وكان يقول لهم:

ـ استعدّوا فالمواجهة قريبة .

وكان الشيخ يزرع حبّ فلسطين في نفوس الناس، من خلال دروسه الفقهية، وكان يطلب من بعض تلاميذه توجيه أسئلة معيَّنة، ليجيب عليها الجواب الذي يجب أن يعرفه الناس .

سأله تلميذه أبو إبراهيم الكبير مرة، والمسجد مكتظٌّ بالناس :

ـ هل صحيح يا مولانا، أنّ فلسطين كانت ليهود قبل أربعة آلاف سنة؟ .

فرفع الشيخ كمّ جُبَّته الأيمن وقال :

ـ هذا سؤال مهمّ . . ولا بأس في الإجابة عليه، مع أنَّ درسنا كان حول الحج إلى بيت الله الحرام . .

اسمعوا يا إخواني الجواب على سؤال أخيكم أبي إبراهيم . .

عُرفت فلسطين بأرض كنعان منذ عام (٢٥٠٠) قبل الميلاد، واستمرَّ العرب الكنعانيون يحكمونها ألفاً وخمسمئة عام، حتى سُمّيت باسمهم، فقيل لها: أرض كنعان، هكذا ورد في توراة اليهود، حيث تحدَّثت توراتهم عن عبور اليهود نهر الأردن واستقرارهم جنوبيّ القدس في أرض كنعان .

وكان سيّدنا إبراهيم عليه السلام أول من عبر النهر مع مجموعة من قومه، واشترى حفيده إسرائيل مزرعةً كأي فلاح لاجئ غريب، تملّكها

في ظل العرب الكنعانيين، وكوّن مع قومه ما يشبه جالية أجنبية صغيرة..

ولما جاء سيدنا موسى عليه السلام مع قومه من مصر، هرباً من فرعون وملئه، تاه موسى ومن معه أربعين سنة في صحراء سيناء، وكان هذا سنة (١٢٩٠) قبل الميلاد، ولم يجرؤ على اقتحام أرض كنعان، ثم اقتحمها خليفته من بعده، واسمه يوشع بن نون، عام (١١٨٦) قبل الميلاد، واحتلّ أريحا، وذبح أهلها، وخرّب بيوتها.. هل تفهمون ما أقول؟ احفظوا هذه المعلومات جيداً..

وسيّدنا داود عليه السلام لم يؤسّس مملكة إسرائيل إلا سنة ألف قبل الميلاد، بعد أن سقطت أورشليم (يعني القدس) في أيديهم.. وكانت أورشليم تمثّل آخر حصون الكنعانيين..

ثم انهارت مملكة داود عام (٩٣٥) قبل الميلاد بموت النبي سليمان ابن داود عليهما السلام، وانقسمت إلى مملكتين: مملكة إسرائيل، ومملكة يهودا، وضمّت مملكة يهودا القدس وما جاورها إليها.

وهكذا فنّد الشيخ مزاعم اليهود في حقّهم التاريخي في فلسطين، والناس مشدودون إليه، حتى إنّ بعضهم كان يكتب ما يقوله الشيخ ويستعيده بعض الأسماء والأرقام، ليجادلوا اليهود في أكاذيبهم.

وسأله مرة سعيد عطية المصري، وكان من أعوانه، عن السبي الذي تعرّض له اليهود، ومرة عن فتح القدس، وكان الشيخ يجيبه، ويركّز على بعض المعاني..

ففي فتح القدس، تحدّث عن تحرير فلسطين من أيدي الروم، وكيف أنّ بطارقة القدس طلبوا من القائد أبي عبيدة بن الجراح أن يأتيهم بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليصالحوه على فتح المدينة المقدّسة، ويسلّموه مفاتيحها، وعندما جاءهم أمير المؤمنين كان من جملة ما اشترطوه على المسلمين أن لا يسمحوا لليهود بالسكن في بيت المقدس، وقالوا: إنّ اليهود رجس شيطاني لا يجوز لهم أن يدنّسوا المدينة الطاهرة، وقد وافقهم أمير المؤمنين عمر على هذا، وأثبته في العهد الذي واثقهم عليه.

فهتف عدد من الحاضرين:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

ـ أرأيتم؟ بطارقة النصارى وزعماؤهم ورجال الدين فيهم، يطالبون أمير المؤمنين، بألا يسمح بإقامة اليهود في بيت المقدس.. لماذا؟ لأنهم يعرفون أنّ اليهود فاسدون مفسدون في الأرض.

ومرة سأله أبو إبراهيم الصغير عن اللجنة الصهيونية قائلاً:

ـ كثيراً ما نسمع عن اللجنة الصهيونية يا مولانا، وبعضهم يزعم أنها هي التي تتصرّف في فلسطين، وكأنها هي الحاكمة والمسؤولة.. فما هي هذه اللجنة؟.

هَمْهَمَ الشيخ عزّ الدين، ورفع كلتا يديه إلى الأعلى وشدَّ كمّيه إلى

زنديه، وقال ـ وابتسامته التي لا تفارق محيّاه، تزيّن وجهه الصبوح ـ:

ـ كنّا نتحدّث عن مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام، وتريدنا يا أخي يا أبا إبراهيم أن ننتقل إلى أصحاب مساوئ الأخلاق، من إنكليز ويهود.

فقال أبو إبراهيم الصغير:

ـ وبضدّها تتميز الأشياء يا مولانا.

قال الشيخ عز الدين، ردّاً على سؤال أبي إبراهيم الصغير:

ـ الإنكليز احتلوا فلسطين، ودخلوا القدس في التاسع من شهر كانون الأول عام (١٩١٧م) احفظوا هذا التاريخ، حذارِ أن تنسوه.. وبعد يومين من احتلال القدس، وقف الجنرال اللنبي ـ قائد الجيش الإنكليزي المحتل ـ وألقى خطابه المشهور في قلعة القدس القديمة، وقال فيه: الآن انتهت الحروب الصليبية.. كما وقف غورو، القائد الفرنسي الذي احتلّ دمشق في الرابع والعشرين من تموز (١٩٢٠م).. وقف السكّير على قبر صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه، وركله بقدمه، وقال: عُدنا يا صلاح الدين...

وقد سبق احتلال بلاد الشام، اتفاقية سايكس وبيكو في تشرين الأول عام (١٩١٦م) وقضت تلك الاتفاقية بتقسيم بلاد الشام إلى مجموعة من الدويلات، وأعطى بلفور اللعين ـ وزير خارجية الإنكليز ـ وعداً لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين في الثاني من تشرين

الثاني عام (١٩١٧م).

وبناء على تلك الاتفاقيات السرية، والوعد البلفوري المشؤوم أصدرت السلطات الإنكليزية المحتلة أمراً إلى الإدارة العسكرية الإنكليزية الحاكمة في فلسطين، في نيسان (١٩١٨م) بأن تسمع وتطيع أوامر اللجنة الصهيونية التي وصلت في ذلك الحين إلى فلسطين، برئاسة اليهودي وايزمان..

وبموجب هذا الأمر، أُعطِيَت اللجنة الصهيونية ـ فوراً ـ كل التسهيلات في تنقّلاتها وتحرّياتها، وصارت تلك اللجنة الملعونة، المرجع المهمّ للإدارة الحاكمة، وسرعان ما فُتحت أبواب فلسطين للهجرة اليهودية.

فسأل سعيد المصري:

ـ والعرب؟ والفلسطينيون؟ أين كانوا؟.

أجاب الشيخ عز الدين:

ـ الإنكليز عزلوا الشعب الفلسطيني عن إخوانه وأشقائه في بلاد الشام، وحرّموا عليهم كلَّ عمل يتَّصل بمستقبلهم.. منعوهم حتى من السفر والتجوُّل، ثم إنَّ ظروف الحرب أنهكت الشعب، ثم جاء الإنكليز ناكثو العهود والمواثيق، ليزيدوا الطين بلّة، ويكونوا ضغثاً على إبّالة، فاحتلوا فلسطين والأردن والعراق، كما احتلّوا من قبل مصر والهند.. والإنكليز أكبر قوة في البر والبحر..

فصاح عربي البدوي:

ـ ولكنَّ الله أكبر منهم، ومن أساطيلهم، وجيوشهم.

فقال القسام:

ـ أحسنت يا عربي.. بهذه الروح، وبهذا اليقين، نكون نحن أكبر منهم ومن اليهود ومن كلّ دول الكفر والضلال.

وأخرج الشيخ منديلاً نظيفاً من جيبه، وأسند ظهره إلى (العَرَنْدَس) الذي يجلس عليه، ومسح عرقه الذي كانت حبّاته تلألأ على جبينه، ثم تابع يقول:

ـ بالإيمان، أيها الأحباب، نمتلك إرادة لا تُقهَر بعون الله، انظروا، عندما اعتقل الإنكليز الأمير محمود الزناتي في الحادي والعشرين من نيسان عام ألف وتسعمئة وعشرين.. احفظوا التاريخ.. احفظوا تاريخ كل حادثة.. أقول.. عندما اعتقل الإنكليز الأمير محمود الزناتي، بعد المذبحة التي شارك فيها الإنكليز واليهود معاً، في الرابع والخامس من نيسان هذا، وهاجمت جموعُ الشعب الفلسطيني السجنَ، وأخرجوا الأمير المعتقَل، برغم أنف الإنكليز.. ماذا فعل الإنكليز؟ لقد انصاعوا لإرادة الشعب المؤمن.. وعندما اشتدّت المواجهات بين الفلسطينيين واليهود والإنكليز، وهاجم الفلسطينيون بعض القرى اليهودية، ماذا فعل اليهود؟.

فقال البدوي:

ـ هربوا مثل الكلاب.

ـ بل الكلاب تقف وتنبحك، وقد تهاجمك، للدفاع عن نفسها، أمّا اليهود فإنّهم ولّوا الأدبار.

وأحسَّ الشيخ أنه ربما تجاوز المقرَّر في إجاباته اليوم، فقد استطاع غرس شجرة الحقد المقدّس تجاه الإنكليز واليهود في هذه الإجابات، فأخذ يلملم جبّته، إيذاناً بالانصراف، فقال له سعيد المصري:

ـ يا مولانا.. أنت لم تجبني على سؤالي: أين العرب؟ وأين المسلمون؟.

هل من المعقول أن يبقى إخواننا العرب والمسلمون يتفرّجون علينا، ولا يحرّكون ساكناً من أجل القدس والأقصى والبراق والصخرة؟!.

قال الشيخ:

ـ دع العرب يا شيخ سعيد، فإنهم يكابدون ما يكابدون من ألوان التخلّف والجهل والفقر والمرض.. والمسلمون غارقون في مشكلاتهم.

قال سعيد المصري:

ـ سوف أذهب إلى مصر وأستنفر أهلها المسلمين لنصرة فلسطين.

قال الشيخ القسام:

ـ بارك الله فيك يا شيخ سعيد يا مصري. . سوف نعتمد على أنفسنا هنا، وسوف يتحرك أهل الغيرة والنجدات من إخواننا المسلمين في مصر وسورية والأردن والعراق والحجاز والمغرب والهند وتركية وغيرها من أجل هذه القضية المقدّسة، وها نحن أولاء الآن نجلس في مسجد الاستقلال. . من بنى هذا المسجد؟ ومن بنى مدرسته؟ ومن وقف له الأوقاف؟

فأجابه سعيد:

ـ الشيخ كامل القصاب.

ـ ومن أين الشيخ كامل القصاب؟.

ـ من دمشق.

ـ إذن. . الشيخ القصاب ليس فلسطينياً. . إنه سوري، ومع ذلك جاء بي وبإخواني إلى فلسطين، لنتابع كفاحنا ضدّ الغزاة الإنكليز واليهود هنا، بعدما استحال الكفاح المسلّح في سورية التي حكمها الفرنسيون الشرسون المجرمون. . لماذا؟ لأنَّ هذه الأمة أمة واحدة، وهذا الوطن وطن واحد لكل المسلمين، ولأن هذه الأرض أرضٌ عربية إسلامية منذ آلاف السنين. ثم. . أريد أن أسألكم:

ـ ما اسم هذا الجامع؟.

فجاءته الإجابة من كل مكان: مسجد الاستقلال.

فقال الشيخ:

ـ الشيخ كامل القصاب السوري الجنسية ـ حسب تقسيمات الاستعمار ـ يبني هذا المسجد، ويسمّيه الاستقلال، تفاؤلاً بالدور المأمول له في تحرير حيفا ويافا والقدس وغزة وسائر الأرض الفلسطينية.

هل تسمعني يا شيخ سعيد يا ابن الكنانة؟.

ـ نعم يا مولانا.. أسمعك.

فقال الشيخ:

ـ المهم الآن أن تكون فلسطين كلّ فلسطين في قلوبنا، تكون هي همّنا وشغلنا الشاغل، أن يكون بيت المقدس، والأقصى والصخرة والبراق والخليل خليل الرحمن، وكل حبّة رمل أو تراب فلسطينية، في قلوبنا وعقولنا.

ـ ١٧ ـ

قال الشيخ عز الدين للشيخ القصاب، وقد جلسا وحدهما في جوف الليل، وقد نام أهل البيت، كما نام سائر أهل حيفا:

ـ والآن يا شيخ عز الدين، فقد استطعتَ أن تفعل خلال خمس

سنوات، ما لم يستطع غيرك فعله في عشرات السنين.

ـ هذا بفضل توجيهاتك ودعواتك يا شيخ كامل!.

ـ بل بفضل الله، ثم بفضل جهودك وجهود إخوانك المجاهدين يا شيخ عزّ الدين.. فقد طفتُ بعض القرى، والتقيتُ كثيراً من الناس، وكانوا كلّهم يلهجون بذكرك، ويردّدون بعض كلماتك في خطبك ودروسك، وكلُّهم معجبون بالشيخ السوري الوسيم، صاحب العمامة الأنيقة، والجبّة الجميلة، والمنطق الحلو الذي يخرج من فم ينقط منه عسلٌ مصفّى.

فقاطعه الشيخ عز الدين:

ـ هل هذا غزَل يا شيخ كامل؟.

أجاب الشيخ كامل القصاب:

ـ إنَّ الفلاحين يتغزَّلون بقامتك الممشوقة، وبوجهك المنير، وبعينيك الساحرتين.. هكذا سمعتهم ـ والله ـ يقولون عنك، كما أنهم معجبون بعقلك النيِّر وأفكارك المستنيرة الثائرة.. أظنّك قد عرفتَ كيف تطبخهم، وتنضجهم، ليكونوا وقود الثورة ورجالها الميامين.

قال الشيخ القسام:

ـ والله إنَّ عجبي لا ينقضي من هؤلاء البسطاء الطيّبين.. هؤلاء الفقراء من باعة الكاز، والعتّالين، والحجَّارين، والفلاحين ما أروعهم..

ما أبدعهم . . ما أحسن عشرتهم . . ما أسخاهم وأكرمهم . . لو طلبت من أحدهم ابنه لقدَّمه إليك، ما بخل به عليك .

قال الشيخ كامل في اهتمام :

ـ دقّ الحديد وهو حامٍ يا شيخ عز الدين . . فهؤلاء أصبحوا مهيّئين للثورة على الإنكليز واليهود .

ـ مع أنَّ أكثر دروسي في الحلال والحرام، وفي أركان الدين .

ـ ولكنّك كنت ترمي رميك هنا وهناك، ومن خلال أحاديثك تلك .

قال الشيخ عز الدين :

ـ الحقّ يا شيخ كامل، لهؤلاء البسطاء الفقراء دور عظيم في نشر الوعي بكلّ أشكاله وألوانه، في صفوف الناس في حيفا، وفي قراها .

ـ والآن . . على ماذا عوَّلت؟ ماذا تريد أن تفعل؟ خطوة . . خطوة . .

قال الشيخ عز الدين، وهو يُخرِج ورقة من الوسادة التي يتكئ عليها :

ـ هداني الله إلى هذا التشكيل، لتنظيمنا الجهاديّ :

سيكون على رأس التنظيم قيادة مؤلَّفة من مجموعة إخوة، ستكون أنت وأنا من بين أعضائها .

فقال الشيخ القصاب :

ـ بل أنت رئيسها . . الشيخ عز الدين هو شيخ المنظمة ورئيسها .

ـ والشيخ كامل؟ .

ـ والشيخ كامل مستشارها ، إن وافقتم وأحببتم .

ـ بل أنت المرشد والموجّه والمستشار .

فقال الشيخ كامل :

ـ دعنا من هذه الأسماء ، أنا لا أستطيع الظهور ، والإقامة الطويلة بينكم . . أنا من أهل الخطوة .

وضحك الشيخان ، ثم قال الشيخ عز الدين :

ـ وستكون عندنا خمس مجموعات ، وكل مجموعة تعمل على انفراد ، ولا يعرف أفراد المجموعة الواحدة شيئاً ذا بال عن أفراد المجموعة الأخرى ، وعن مهمَّاتهم . .

قال الشيخ القصاب :

ـ نبدأ بالمجموعة الأولى .

قال القسام :

ـ المجموعة الأولى هي التي تعنى بالتدريب العسكري ، ثم القيام بالعمليات الجهادية .

ـ إذن.. دعنا نطلق عليها اسم: مجموعة التدريب.. ولمن ستوكل أمرها؟

ـ ليس لدينا أفضل من الضابط التركي جلادت.. وسوف أطلب منه العمل على تأسيس سليم لهذه الوحدة التنظيمية، بعد أن أشرح له مهمتنا في تدريب المجاهدين على مختلف أنواع الأسلحة التي يمكننا الحصول عليها، ليستخدموها الاستخدام الصحيح، ومن ثمَّ تدريبهم على فنون القتال في المدن والجبال.

ـ والمجموعة الثانية؟.

ـ المجموعة الثانية هي التي تعمل للإعداد.. إعداد الناس للثورة، بنشر الوعي بين الناس، وبشرح أخطار المرحلة الراهنة على البلاد، وما يقوم به الإنكليز لتمكين اليهود من فلسطين بإقامة الوطن القومي المزعوم لهم.

ـ ولمن ستسلّمها؟.

ـ لحاج حسين حمادة.

ـ جميل.. والثالثة؟.

قال الشيخ القسام:

ـ والمجموعة الثالثة لشراء الأسلحة والذخائر.. وسوف يتسلّمها حسن الباير.

فقال القصاب:

ـ كلّما نظرتُ إلى حسن، تذكرتُ ما كان عليه من انحراف، وما صار إليه من صلاح، بعد أن هداه الله على يديك، تماماً، مثلما كنتُ أنا في شبابي، قبل أن يهديني الله.

فقال الشيخ عز الدين، كأنه لم يسمع ما قاله الشيخ كامل عن نفسه:

ـ أرى أن نسلّمه مهمة شراء الأسلحة مع الشيخ نمر السعدي.

ـ عظيم.. يكمّل كلٌّ منهما صاحبه.. والرابعة؟.

ـ المجموعة الرابعة هي المجموعة السياسية، ومهمّتها الاتصال بالسياسيين العرب والفلسطينيين، لتنسيق العمل، وتوحيد المواقف، حتى لا نصطدم بغيرنا من رجال الأحزاب السياسية، وبهذا نفوّت على الاستعمار الإنكليزي مبدأه الملعون: «فرّق تَسُدْ».

ـ ولمن ستوكل مهمة هذه اللجنة؟.

ـ للشيخ المخزومي.. محمود سالم المخزومي.

قال الشيخ كامل:

ـ رائع.. والخامسة؟.

فقال الشيخ عز الدين:

ـ وحدة التجسس على العدو الإنكليزي واليهودي.

فقال الشيخ كامل:

ـ هذا تفكيرٌ متقدِّم جداً يا شيخ عز الدين، أخشى أن يقع أفراد هذه المجموعة في بعض المطبّات..

فقال القسام:

ـ سوف نكلّف بهذه المجموعة الشيخ ناجي أبو زيد، وهو ذكي، وحاضر البديهة، وموثوق، وصاحب دين. وصِلاته واسعة بالعرب الذين يعملون مع اليهود، في الثكنات الإنكليزية، والدوائر الحكومية والبوليس.. وعن طريقه كنت أعرف بعض أسرار الأحزاب اليهودية، والضباط الإنكليز.. وأرجو أن نتعرَّف عن طريقه على بعض الأهداف الثمينة.

قال الشيخ كامل:

ـ أرجو أن توفَّق في عملك السرّي هذا يا شيخ عز الدين، وأنا العبد الفقير لله ـ تعالى ـ ستجدني جندياً مطيعاً، منفّذاً لأوامرك.

فقاطعه الشيخ عز الدين بقوله:

ـ لو كنت أعرف أنك تقبل أن تكون شيخ التنظيم ورئيسه ومرشده، لبايعتك فوراً على السمع والطاعة، فمثلي لا يجهل فضلك يا شيخ كامل.

أغضى الشيخ كامل حياءً وتواضعاً وقال:

ـ بل أنت الشيخ والقائد يا شيخ عز الدين، في حال حضوري وفي غيابي، فمؤهلاتك القياديّة العسكريّة، والإداريّة والعلميّة، وفهمُكَ لمن ولما حولك، ومعرفتك بالرجال، كفيلة بإنجاح عملك إن شاء الله، وتخليص البلاد والعباد من هؤلاء السفلة والأوباش..

ثم وقف الشيخ كامل، ومدَّ يده للشيخ القسام، وقال:

ـ مُدَّ يدك يا سيِّدي لأبايعك على الجهاد في سبيل الله، والاستشهاد من أجل فلسطين.. الأرض التي باركها الله.. من أجل الأقصى والصخرة وخليل الرحمن، من أجل تحرير كلّ ذرة تراب من فلسطين.

فهبَّ الشيخ القسام واقفاً ومدَّ يده مبايعاً، ثم تعانق الشيخان ودموعهما تغسل خدودهما ولحاهما الطاهرة.

ـ ١٨ ـ

لم تمضِ أيام، حتى كان الشيخ عز الدين قد رتَّب أموره.. كان يلتقي كلَّ يوم واحداً من رؤساء تلك اللجان، يبحث معه شؤون لجنته، ويجسّ نبضه القياديّ في القدرة على استيعاب من سيعمل معه، وعلى استيعاب الظروف التي تواجهه، ثم اختيار أعضاء مجموعته..

كان الشيخ القسام يشرح المهمة، وتصوّره عن العمل، ثم يترك لرئيس اللجنة الحديث، ليفضي بكلِّ ما في نفسه من مخاوف

وتساؤلات، وما قد يتوهّم من عقبات، ثم يجيب عن كلّ ذلك، فلا يخرج إلا منشرح الصدر، مستوعباً مهمته، مبايعاً على السمع والطاعة والسريّة التامّة..

وانطلقت كلٌّ لجنة تعمل في الميدان المخصّص لها، وكانت حصيلة كل عمل يصبُّ في مصبِّ الشيخ القسام، وهو يقوم بالتنسيق بين تلك اللجان، ويسهر على تربية رؤسائها وأعضائها التربية اللائقة بهم، فكان يُعنى بتربيتهم روحياً، فيؤكّد على أن يكون لكل فرد منهم وِرْدٌ قرآنيّ يوميّ، لا يقل عن تلاوة جزء من القرآن، مع التدبّر والتفكّر والتأمّل، والعمل بمقتضى ما يقرأ ويفهم.. كان يقول لهم: المصحف هو جواز سفركم إلى الآخرة، فاعمروا به قلوبكم وعقولكم وجيوبكم وسلوككم.

وكـان يصرّ على أن يـؤدّوا الصلوات الخمـس في أوقاتها، وفي المساجد، ويلحّ على الإكثار من السجود في جوف الليل، متهجّدين قائمين، والناس نائمون، كما كان يلحّ على صيام الإثنين والخميس من كل أسبوع، وعلى صيام الأيام البيض، وعلى حضور مجالس الذكر، وعلى الإكثار من ذكر الله في سائر أحوالهم..

وكـان ينأى بهم عن العبث واللهو، ويقول لهم: الأمة المجاهدة لا تعرف العبث ولا اللعب.. لا تعرف إلا الجد...

كما كان يرتفع بهم وبأذواقهم وعواطفهم ومستويات تفكيرهم،

ليكونوا مجاهدين حقاً، وكان يلفت انتباههم إلى عبث السياسيين وخصوماتهم، ويقول لهم: دعوا القادة والزعماء يتناحرون ويتنافسون على الحطام من المناصب والأموال، وتنافسوا أنتم في حبِّ الله، والسعي إلى رضاه، ولن يرضى الله عن امرئ يفرّط بقضية فلسطين، فينام وهو يعلم أنَّ عيون اليهود ساهرة، ومؤامرات الإنكليز تُحاك لهم في الخفاء.. تنافسوا أنتم في حبّ فلسطين، في البذل في سبيلها، والتضحية بالأوقات والأموال والراحة والأولاد من أجلها.

كان الشيخ لا يهدأ، لا ينام ولا ينيم، دائب الحركة، دائم التنقّل بين المدن والقرى الفلسطينية، يجتمع إلى الناس في أماكن تجمُّعاتهم، ويزور الفلاّحين في حقولهم، ويلتقي الطلاب، يعظهم ويرشدهم وينبّههم إلى الدور الذي يجب أن يؤدّوه وينهضوا به، فهم قادة المستقبل، وعلى أيديهم تتحرر البلاد.

وكانت خطبه لا تقلّ عن دروسه روعةً وغنى، ولهذا كان الناسُ يتوافدون إلى مسجد الاستقلال في وقتٍ مبكر جداً، ليحوزوا أماكن لهم، قريبة من الشيخ، ليتملّوا هيئته بعيونهم، ويعوا ما يقوله بآذانهم وعقولهم، فقد كانت خطبه محاضرات، يخاطب بها القلوب والعقول معاً، ويمزج فيها بين الوطنية والدين، ويحبّب إليهم الجهاد في سبيل الله.

خَطَبَ مرةً خطبةً مثيرةً جداً، ندَّد فيها بالإنكليز أعداء هذه الأمة

وأعداء الإسلام، وقارن بين ما يفعله الإنكليز في فلسطين، وبين ما يفعله المستعمرون الآخرون في البلدان الأخرى، وقال:

ـ هناك فروق كبيرة وواضحة بين الاستعمار الغربي بسائر أشكاله المقرفة، وبين ما يفعله الإنكليز المجرمون هنا في فلسطين، إنهم هنا يريدون القضاء على الشعب الفلسطيني، واغتصاب أراضيه، وإقامة دولة لليهود على الثرى الفلسطيني المبارك.

جعلوا اللغة العبرية لغةً رسمية، مع أنَّ عدد اليهود حتى الآن، لا يتجاوز الستين ألفاً، مقابل مليون من العرب أصحاب البلاد.

أطلقوا حرية التعليم لليهود، فبنوا المدارس والمعاهد والجامعة العبرية، في الوقت الذي يضيّقون علينا، فلا يسمحون لنا ولو بقسط من الحرية التي يتمتع بها اليهود في مدارسهم المستقلة. سنُّوا مئات القوانين ليحدُّوا من نشاط العرب، وليحموا اليهود.. لقد سهَّلوا هجرة الآلاف المؤلَّفة من اليهود إلى فلسطين، من سائر أنحاء العالم، لأن الإنكليز يعتقدون أو يعتبرون كلَّ اليهود المبعثرين في أنحاء الأرض، شعب فلسطين، أمَّا الشعب الفلسطيني في زعمهم، فهو مجموعة من الطوائف، ويجب أن تُعامَل معاملة الأقليات..

يا للسخرية ويا للمساخر في هذه الأحقاد الصليبية السوداء..

صار الشعب أقلية، والأقلية الهزيلة هي الشعب.

لقد أقطعوا اليهود مئات الآلاف من الدونمات الصالحة للزراعة

وطردوا مئات العائلات من أرضها وديارها وبيوتها وأملاكها التاريخية، بقوة الجيش والبوليس.

ومن أجل إفقار شعبنا، منع الإنكليز تصدير الحاصلات العربية، وسمحوا للحاصلات اليهودية بالتصدير..

فتحوا أبواب المناصب المهمة لليهود، برغم ضآلة عددهم حتى صارت أربعة أضعاف المناصب التي يتولاها بعض العرب، والمحسوبين على الشعب.

وهكذا كانت الحقائق تتدفق على لسان الشيخ ومن ضميره اليقظ، والمصلّون مشدودون إليه، وكانت تُسمع بعض الهتافات والصيحات والتكبيرات من بعض المصلّين، فتتجاوب أرجاء المسجد بالهمهمات الغاضبة، حتى خشي بعض إخوان الشيخ، على الشيخ من الاعتقال، أو من استعجال الثورة قبل أوانها..

لقد كان هذا اليوم مشهوداً ومن الأيام التي لن تنساها حيفا، فالخطبة كانت بالغة التأثير، بما سرد فيها الشيخ من الحقائق، وبأسلوبه المؤثّر، فقد كان يعقّب بتعليق على كل حقيقة من تلك الحقائق..

وكانت صلاة الجمعة مكمّلة للخطبة، بالآيات التي تحدَّثت عن اليهود والنصارى، وبالصوت الحنون الباكي الذي جعل الناس يبكون مع الشيخ، وجعل بعضهم يهتف ويصيح وهو يصلّي، ناسياً أنه في الصلاة، أو غير مالكٍ زمام أعصابه المتوترة.

ثم كان الدرس بعد صلاة العصر أشدَّ صراحة حيناً، وفي مثل صراحة الخطبة حيناً آخر، وكان الشيخ قد أفسح المجال للأسئلة، فتواردت عليه من كل جانب.

سأله أحد الجالسين:

ـ هل من المعقول أن ينسى العرب والمسلمون جرائم الإنكليز، خاصة في فلسطين؟.

فصاح الشيخ في انفعال:

ـ يا ويل من ينسى..

وسأله آخر:

ـ هل تعتقد يا مولانا، بأنّ هناك مؤامرة دولية على فلسطين؟.

فتمطّى الشيخ، وأخذ نفساً عميقاً، وزفر زفيراً كاللهب، ثم قال:

ـ ملّة الكفر واحدة، كلّهم تآمروا علينا، وتآمروا على قهرنا.. كلّهم أيّدوا اليهود، وأيّدوا انتداب الإنكليز على فلسطين، ليمكّنوا لليهود، وليقيموا لهم دولةً وكياناً، ويسرقوا لهم أرضاً ووطناً.

وقام شاب يجلس في وسط الصفوف وقال:

ـ إذا سمحتَ يا أستاذ، قرأتُ لك ما جاء في وثيقة فتح القدس، التي واثق بها أمير المؤمنين عمر، أهل القدس، وبطارقتها النصارى.

ـ هات أسمعنا يا بنيَّ، بارك الله فيك.

فأخرجَ الشاب ورقة صغيرة من جيبه، وقرأ:

ـ «هذا ما أعطى عبد الله عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم: لا تُسكَن كنائسهم ولا تُهدم.. ولا يُكرَهون على دينهم..

ولا يسكن إيلياء معهم أحدٌ من اليهود».

وعندما جلس الشاب، سأل أحدهم:

ـ متى فُتحت القدس يا مولانا؟.

ـ في السنة الخامسة عشرة من الهجرة.

وقام آخر، يبدو عليه الخجل والتردّد، كأنه في موقف حرج، أو سيقول كلاماً محرجاً، وقال:

ـ أرجو ألاّ تغضب يا سيِّدنا الشيخ، فقد يكون كلامي نشازاً، شاذاً..

فابتسم الشيخ وقال:

ـ نصحّح الخطأ، ونقبل الصحيح.. تفضَّل يا أخي، قل ما بدا لك، ولا تكتم في صدرك شيئاً، فنحن في مجلس علم، ووعظ، وإرشاد، وكثرةُ المدارسة تُعدي على العلم.

قال الرجل، وهو ما يزال في ارتباكه:

ـ سيّدنا عمر رضي الله عنه، أعطاهم كلَّ هذه المواثيق، والمسلمون حافظوا عليها، واحترموها، ثم جاء الصليبيون، فخاضت خيولهم بدماء أكثر من تسعين ألف مسلم، قتلوهم في القدس، وفي المسجد الأقصى الذي لجأ إليه الناس، أطفالاً ونساءً وشيوخاً ورجالاً.. وبعد تسعين سنة، جاء البطل العظيم صلاح الدين، وحرَّر القدس، وسمح للروم بالعودة إلى بلادهم، ولم يؤذِ أحداً، بل كان في منتهى التسامح مع أولئك الصليبيين الهمج الأوباش المجرمين..

وسكت الرجل ليلتقط أنفاسه، فقد كان منفعلاً انفعالاً شديداً، فقال الشيخ:

ـ كلامك هذا كله صحيح وسليم، ومعروف، فما المطلوب؟ فليس في كلامك هذا ما يزعِج أو يغضِب.

قال الرجل بشفتين مرتجفتين:

ـ أنا لم أنْهِ كلامي يا مولانا.. وقد سألْتَني عن المطلوب.

ـ تفضَّل.. ما المطلوب مني؟.

ـ المطلوب.. أن تجيبني على هذا السؤال:

هل كان المسلمون مخطئين في تسامحهم مع النصارى واليهود؟.

أجاب الشيخ :

ـ لا . . لم يكونوا مخطئين .

قال الرجل في انفعاله :

ـ حِلْمَك عليّ يا سيّدنا الشيخ . . فلم أنتهِ بعد .

كانت عيون الناس مشدودة إلى الرجل الواقف مرة، وإلى الشيخ مرة، فقد كانت هيئة الرجل المنفعل مثيرة .

قال الشيخ :

ـ معذرةً يا أخي، ظننتُكَ أنهيتَ كلامك . . تفضَّل .

قال الرجل :

ـ المؤمن لا يُلدَغ من جُحْرٍ مرتين . . فهل نحن مؤمنون؟ .

هل الإيمان ما يزال في قلوبنا وعقولنا، ونحن نُلدَغ من هؤلاء، وأولئك . . هنا وهناك وهنالك؟! .

ألم نتعلّم من درس الأندلس؟! .

لو تركنا النصارى على اليهود في الأندلس، وفي غيرها، ماذا كان مصيرهم؟! .

هل كانوا يفكّرون باغتصاب فلسطين، وارتكاب الجرائم ضدَّ أهلها المسلمين؟ .

ولو لم يتسامح صلاح الدين مع الروم، ولو أنه أعمل السيف في رقابهم، هل سيكون الصليبيون الجُدُد، في لؤم أجدادهم الصليبيين القدامى؟!.

أجب يا سيدنا الشيخ إذا سمحت، وأرجو ألاّ تذكر لي ما قاله مؤرخ عربيّ هنا ومؤرخ غربي هناك، عن عدل الإسلام، ومروءة العرب، فإنهم إنما يقولون هذا لتخديرنا، والضحك على لحانا.

توجَّهت الأنظار نحو الشيخ، فاعتدل الشيخ في جلسته وقال:

ـ اجلس يا أخي، فقد أذكرتَني الطعن وقد كنتُ ناسياً، ولقد أثرتَ كوامنَ أشجاني بحديثك هذا يا أخي.. ولا تنتظر مني اليوم جواباً على كلامك، واسمع، واسمعوا أنتم أيّها الأحبّة، حديث رسول الله ﷺ.. قال الرسول الكريم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:

«إنَّ اللهَ عزَّ وجلّ سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وآباؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام، أو بيت المقدس، فهو في جهاد إلى يوم القيامة».

جعلنا الله تعالى من المرابطين المجاهدين في سبيله.

ـ آمين.

ـ وما دمنا في رحاب الأرض المباركة، وفي ذكر بيت المقدس، وفاتحه أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه وأرضاه، فاسمعوا ما قاله في

الخطبة التي خطبها في جموع المسلمين المجاهدين المنتصرين بعد فتح القدس.

قال لهم:

«إياكم والعمل بالمعاصي، فإنَّ العملَ بالمعاصي كفرٌ بالنِّعَم، وقلَّما كفر قومٌ بما أنعم الله عليهم، ثم لم يفزعوا إلى التوبة، إلا سُلبوا عزَّهم، وسلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم».

فنهض الرجل المأزوم وقال:

ـ سأنتظر الجواب من الأيام والليالي الحبالى، وستذكرون ما أقول لكم، وأفوّض أمري إلى الله.

فقال الشيخ، وقال معه الحاضرون:

ـ لا إله إلا الله.

ثم سدَّد الشيخ نظراته نحو جموع الحاضرين. وقال:

ـ اكتبوا هذا الحديث النبويّ الشريف، واحفظوه.

فاستعدَّ بعضهم للكتابة، وعندما هدأت الأصوات، قال:

ـ قال رسول الله ﷺ: «كلُّ ميت يُختَمُ على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنْمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر». صدق رسول الله ﷺ.

ونحن هنا في رباط، كلُّنا مرابطون بإذن الله تعالى، نستقبل أيامنا بقلوبٍ عامرة بحبّ الله ورسوله، والجهاد والاستشهاد في سبيله، ولا نريد أنْ نتلاوم ونتلاحى فيما كان، بل نأخذ العبرة مما كان، لما سوف يكون، ولما هو كائن، واللبيب يفهم من الإشارة، ولن أزيد في هذا المقام، وفي هذا اليوم بالذات، فقد أكثرنا من الكلام، وأقللنا من العمل، وهذا ما يريده منّا العدوّ، ويرفضه الإسلام، ويأباه المرابطون والمجاهدون..

قولوا معي:

«سبحانك اللهمَّ وبحمدك، نشهد أن لا إلـه إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك».

ـ ١٩ ـ

كانت أصداء يوم الجمعة هذا، تتردّد في كل مكان في حيفا، في المقاهي والمضافات، ناهيك عن المساجد والبيوت، وقد توقَّع الناس اعتقال الشيخ والتحقيق معه، كما خشي آخرون على حياته من الاغتيال، وقال رجل كهل كان يمرّ في مضافة في الحيّ الشعبي:

ـ يجب حماية هذا الشيخ السوري، فهو غريب، وقد ترك بلاده وأهله للجهاد في سبيل فلسطين، ولا يجوز لأبناء فلسطين أن يسلّموه لليهود أو الإنكليز، مهما كلَّفنا هذا من ثمن.

فتحمَّس صاحب المضافة، وكان شيخاً في السبعينيات من عمره:

ـ عارٌ علينا إذا مُسَّ هذا الشيخ الفاضل بأذى.

وقال ابن صاحب المضافة:

ـ الرأي عندي، أن ندعوه إلى الإقامة معنا في البيت، في بيتنا.

ـ وأهله؟.

ـ وأهله.

ـ وإخوانه؟.

فقال ابن صاحب المضافة:

ـ بيتنا لا يحتمل استضافة أكثر من عائلة.

فسأل الرجل الكهل:

ـ هل هم يسكنون في بيوت متقاربة؟.

ـ ومن الصفيح الذي لا يردُّ حرّاً ولا برداً.

فوثب الرجل الكهل كمن لدغته عقرب، وهو يقول:

ـ أعوذ بالله.. يسكنون في بيوت من صفيح؟! ماذا يقول السوريون عنّا، إذا علموا بهذا؟! وهل يتشجّع واحد من أشقّائنا العرب أو المسلمين، فيأتي للجهاد في فلسطين؟!.

قال صاحب المضافة :

ـ عَرَضْنا عليهم المال، فرفضوه وأبوا أن يأخذوه .

فقال الرجل الكهل :

ـ والله لم أسمع، ولم يسمع العرب بمثل هذا الكرم الحاتمي، عرضتم عليهم فاعتذروا، فقبلتم اعتذارهم، وكفى الله المؤمنين القتال . . هل هذا هو الكرم الذي اشتُهر به العرب وأقرّه الإسلام وحبّذه ودعا إليه؟! .

قال الحاج صاحب المضافة :

ـ جرّب يا حاج، وسوف ترى عفّتهم، وزُهْدَهم .

فقال أحد المسافرين :

ـ خرجنا عن الموضوع .

قال الكهل في غضب :

ـ بل ما زلنا في لبّ الموضوع . . الأمور متعلّقة ببعضها البعض، يجب أن نحافظ على سمعتنا، وعلى تقاليدنا، فهم ضيوفنا . .

فقاطعه صاحب المضافة بقوله :

ـ بل هم سادتنا . . والله لن تروا مثل هذا الشيخ، حتى لو درتم الدنيا بأسرها .

فقال أحد الجالسين:

ـ لهذا أرى أن نعمل على حراسة الشيخ، والمحافظة على حياته، ثم ننظر في أمر ضيافته، وإسكانه في بيت يليق به وبعلمه وفضله وجهاده.

وخرج أربعة شبان أقوياء، لمراقبة بيت الشيخ وحراسته، بينما خرج صاحب المضافة والرجل الكهل الذي وفد إلى المضافة من يافا، لقضاء بعض حاجاته، وليسمع المزيد من أخبار الشيخ القسام، فقد سبق له أن رآه في مقهى يافا يجلس مع بعض اللاعبين بالنرد، وسُحُبُ الدُّخان تكاد تخنقه وهو يتحدّث إليهم، ويدعوهم إلى العودة إلى إسلامهم، وقد سمعه يقول:

ـ الإسلام يدعوكم لتحافظوا على وطنكم فلسطين، فأعداء فلسطين في الداخل والخارج..

خرج الرجلان باتجاه بيت الشيخ، وكانا يراقبان الطريق بعيون يقظة، وعندما اطمأنّا لسلامة الموقف، ولتوزع الشبان الأربعة حول البيت، قرعا الباب المصنوع من صفائح التنك، فجاءهما صوت من الداخل: (يا الله).. ثم انفرج الباب عن واحد من إخوان الشيخ، فصحبهما إلى حيث يسمرون مع الشيخ.

كان ترحيب الشيخ وإخوانه حارّاً بالضيفين القادمين، ثم قال الشيخ:

ـ ننهي حديثنا اليوم، عن القائد المحنّك، والصحابي الجليل المثنّى بن حارثة.

والتفتَ إلى الضيفين وقال:

ـ كنا في سيرة المثنّى.. أنا أعشق المثنى، وأراه لا يقلّ عن سيف الله خالد بن الوليد، رضي الله عنهما.. في كل يوم نسهر على سيرة صحابيّ مجاهد، لعلّنا نصل إلى عبادة المجاهدين.

فقال الرجل الكهل:

ـ ألا تخاف يا مولانا من تآمر اليهود والإنكليز؟.

قال الشيخ عز الدين: لا.. أنا لا أخاف إلا الله.. ولا ينبغي للمسلم أن يخشى غير الله..

ـ ولكنّهم يخافون من هذا الكلام يا مولانا.

ـ من أيّ كلام؟

ـ من أيّ كلمة تقولها على المنبر، أو في الدروس، أو في المجالس العامة والخاصة.

قال الشيخ:

ـ أنا ما تعلّمتُ العلم لأكتمه، بل لأعلّم الناس أمور دينهم.

ـ ولكنّهم يعدّون كلامك سياسة.

ـ فليعدّوه كما يريدون . . أنا عالم، ولستُ أجد وظيفة للعالم في تغسيل الموتى وتكفينهم وتلقينهم، ولا في تعليم الناس الوضوء والصلاة فحسب، الإسلام دين شامل، وعليَّ وعلى علماء الدين، تفهيم الناس هذا.

قال الرجل الكهل:

ـ ولكنَّهم لن يسكتوا عنك يا مولانا.

ـ أنا أعرف أنهم لن يسكتوا، ولا ألومهم، فأنا أسعى لاجتثاثهم من جذورهم، واقتلاعهم من هذه الأرض التي دنَّسوها بموبقاتهم، وجرائمهم، بل وبوجودهم. ولو كنت أنتظر سكوتهم، أو الإذن منهم، لبقيت في بلدتي الصغيرة، في جبلة، أعلِّم الناس أمور دينهم، وأشاركهم في ولائمهم، وفي مزارعهم وتجارتهم، ولَمَا تغرّبتُ وتركتُ أهلي وأقاربي وبلدتي وأصحابي وبيتي. .

تنحنح صاحب المضافة وقال:

ـ والله شرَّفت فلسطين أنت وإخوانك يا مولانا.

ـ كلُّها وطني. . كلُّ أرض يُذكَرُ فيها اسم الله هي أرضي، وكلُّ من يقول: لا إله إلا الله، أخي وابن عمّي وصديقي، فأخوّة الإسلام فوق أخوّة الدم، ورابطة الدين فوق رابطة الجنس والعرق.

قال صاحب المضافة:

ـ افتقدناكم يا سيّدنا الشيخ . . لم تزورونا منذ مدّة .

قال الشيخ في اعتذار حَييّ :

ـ والله هذا تقصير أعترف به، ولن أعود لمثله .

فاهتبلها الرجل الكهل فرصة، وقال يدعوه :

ـ ألا تنهض الآن معنا إلى المضافة يا مولانا؟ ! .

ـ لا . . تأخَّر الوقت . . في يوم آخر إن شاء الله .

قال الرجل الكهل :

ـ بصراحة . . نحن نخشى عليك من غدر الإنكليز واليهود يا مولانا .

فقال الشيخ في ثقة واطمئنان :

ـ نِعْمَ الحارسُ الأجَلُ . . ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

ـ ولكن الاحتراس واجب .

ـ هذا صحيح . . . وها أنذا أعيش مع إخواني، هؤلاء، وفيهم وفيكم الخير والبركة .

قال الكهل :

ـ أنت لا تعرف مكر الإنكليز واليهود يا مولانا.

فهتف الشيخ عز الدين:

ـ فمن يعرفهم إذن؟.

قال صاحب المضافة:

ـ نرى أن تتفضل أنت وإخوانك وعائلاتكم للمبيت عندنا الليلة.

فسأل الشيخ:

ـ هل من جديد تخفونه عني؟.

ـ لا.. وإنما الاحتياط واجب.

قال الشيخ:

ـ اطمئنوا.. إذا جاؤوا مقاتلين قاتلناهم وقتلناهم بأسلحتهم إن شاء الله.

وإذا جاؤوا من أجل التحقيق، والاعتقال فاللهُ حَسْبُنا، والأملُ فيكم، في متابعة المسيرة الجهادية التي لم نبدأها بعد.

ـ ٢٠ ـ

في صباح اليوم التالي، كانت تقف ثلة من رجال البوليس أمام منزل الشيخ، وشاهد الناس الشيخ يخرج من بيته، ويسير معهم، وهو

يبتسم لجموع الناس، ويسلّم عليهم، غير مكترث بهؤلاء العساكر.

وفي مقرّ الحاكم العسكري، كان أربعة رجال ينتظرونه، وعندما رآهم الشيخ، تشامخ برأسه وعمامته، فهبَّ الأربعة واقفين..

سلَّم الشيخ فردّوا التحية برطانة تنبئ عن عجمتهم، كما تنبئ أشكالهم وألوان شعورهم الشقر، وأبشارهم البيض، وعيونهم الزرق عن أنهم إنكليز، أو أوروبيون، وليسوا عرباً.

وكان التحقيق يسير صُعُداً منذ البداية، ثم ما لبث أن انفجر الموقف بين الشيخ وبين المحققين الذين رفضوا المنطق الإسلاميّ الجهاديّ الذي كلَّمهم به الشيخ.

واجهه المحققون بما قال في خطبة الجمعة ودرس العصر، فما أنكر شيئاً مما واجهوه به، بل قال لهم:

ـ يبدو أنكم لا تعرفون شيئاً عن تاريخ الإسلام وعلماء المسلمين. علماء الدين، في كل زمان ومكان، هم القادة، وهم السبّاقون إلى الجهاد، ولا يجوز لعالم الدين أن يفضّل دنياه على آخرته.

فقال أحد المحقّقين بعربية مكسَّرة:

ـ رجل الدين ينزوي في المسجد، ولا يتدخل بشؤون الناس، ولا بالسياسة.

قال الشيخ:

ـ ذاك عندكم.. نحن ليس لدينا رجال دين بالمعنى الذي عندكم..

نحن عندنا علماء بالدين.. أمّا رجل الدين عندنا، فقد يكون عاملاً فقيراً أو فلاحاً أو أفندياً أو تاجراً أو ضابطاً، ما دام يسعى لخدمة الدين، ويتمسّك بتعاليمه.. وعالم الدين عندنا، يعلّم الناس أمور دينهم ودنياهم، ويقاتل المستعمرين والأعداء معهم.

قال صاحب العربية المكسَّرة:

ـ أنت علّمهم أحكام الوضوء، والطهارة، والنجاسة.. أم أنك لا ترى قذارتهم؟.

فاحتدَّ الشيخ وصرخ:

ـ اسمع.. الإسلام دين الطهارة والنظافة.. يتوضأ أكثر المصلين خمس مرات في اليوم، وربما أكثر، فالوضوء سلاح المؤمن.. والاغتسال واجب عندنا يوم الجمعة، ومندوب في سائر الأيام، وفُرض للتطهُّر من الجنابة وما شابهها، فأين أنتم من نظافة الإسلام والمسلمين؟.

قال ذلك المحقق:

ـ إذن علّمهم كيف يتطهّرون ويتنظّفون.. علّمهم أحكام الصلاة والصيام، وعلّمهم كيف يبيعون ويشترون بدون غش ولا كذب.

أجاب الشيخ:

ـ اسمع يا هذا . . أنا أعلّمهم كلَّ شيء . . ولا أحتاج لنصائحك هذه .

ـ أنت لا تعلّمهم إلا كره الإنكليز واليهود .

قال الشيخ ، وهو ينظر إليه ، وقد حَدَسَ أنّه يهوديّ لئيم :

ـ هناك أولويات أسير بموجبها ، وقد رأيت أنَّ الجهاد أولوية على سائر الشؤون الأخرى ، في هذا الظرف الذي نعيش فيه ، تحت الانتداب البريطاني ، والاستيطان اليهودي . . ولهذا . . أنا أرى أنَّ الإعداد للجهاد ، أفضل من بناء المساجد والعمارات ، وأنتم تغرون عملاءكم في إنفاق أموال الأوقاف على المباني ، كفندق القدس مثلاً ، وعلى تزيين المساجد ، وأنا أرى غير ذلك . .

ـ أنت لا تحبّ المساجد إذن؟ .

ـ لا . . أنا أنتظرك لتعلّمني كيف أحبُّها!! .

فصرخ المحقّق :

ـ تسخر مني يا شيخ؟ .

قال الشيخ في حدّة :

ـ نعم . . أنا أسخر منك ، لأنك تتهم شيخاً معمَّماً ، يعمل إماماً وخطيباً بأنه لا يحب المساجد . . أنا أرفض تزيين المساجد حتى لو كان

المسجد الأقصى نفسه . . هل فهمت؟ .

قال المحقق اليهودي :

ـ لا تريد عمارة المساجد، ولا تزيينها، إذن ماذا تريد؟ تريد تسليح المسلمين بتلك الأموال، أليس كذلك؟ .

وقال محقق آخر :

ـ عندنا ما يثبت ذلك . . فقد قلت بالحرف الواحد في إحدى خطبك :

وأخرج من محفظة كانت بجانبه أوراقاً، وقرأ :

«يجب أن تتحوَّل الجواهر والزينة في المساجد إلى أسلحة، فإذا خسرتم أرضكم، فلن تنفعكم الزينة وهي على الجدران» .

وأعاد الورقة إلى مكانها، وأخرج أخرى، وقرأ:

«دعا الشيخ عز الدين القسام إلى تأجيل الحج، وتحويل نفقاته إلى شراء الأسلحة، لأنّ الجهاد أولى من أداء فريضة الحج» .

وأعاد الورقة الثانية إلى مكانها، فقال المحقق اليهودي :

ـ وقلت للناس : الجهاد رفيقه الحرمان . . الجودُ يُفقر والإقدامُ قتّال . . وقلت : المجاهد رائد قومه، والرائد لا يكذب أهله .

ثم إنك تحفّظهم آيات الجهاد، والأحاديث التي تحثّ على

الجهاد، وتشرحها لهم، محرِّضاً إياهم على العصيان، وعلى قتالنا.

فصرخ الشيخ:

ـ على قتال مَن؟.

فقال ذلك المحقق بلا وعي:

ـ على قتال اليهود.

فنظر الشيخ في غيظ إلى ذلك اليهودي المحقق، وقال له:

ـ إني لأرجو أن أنتزع أرواحكم من أجسادكم.

فنهض المحقق اليهودي وصرخ:

ـ يجب أن تُسجن.. يجب أن تموت.

فوثب الشيخ إليه، وأخذ بتلابيبه، وبصق في وجهه ثم قال:

ـ الويل لكم أيها الجبناء.. الموت لكم أيها اليهود اللؤماء.

فوثب إليه الثلاثة، ونادوا الحرس، واليهوديُّ المحقّق يصرخ من الذعر، حتى أنقذوه من بين يدي الشيخ.

قال كبير المحققين للحرس:

ـ خذوا هذا الشيخ المجرم إلى السجن.

التفت إليه الشيخ، والحرسُ يجرُّونه، وقال له:

ـ يا أجير . . يا أجراء اليهود .

وتسامع أهل المدينة باعتقال الشيخ، فتنادوا إلى التظاهر، ولم تمضِ ساعات، حتى أضربت حيفا برمَّتها، فأُغلقت الأسواق، وخرج الطلاب من مدارسهم، والموظفون من دوائرهم، وسار الجميع في تظاهرة، كادت تنقلب إلى ثورة عارمة، لولا الدهاء الإنكليزي الذي أمر بالإفراجِ عن الشيخ، وتهدئة خواطر المتظاهرين، بعد أن زعموا لهم أنَّ الشيخ في ضيافة الحاكم العسكريّ، وليس معتقَلاً، وأنه سيكون في بيته، ثم قالوا: بل هو في بيته . .

وخشي إخوان القسّام من نشوب الثورة قبل الإعداد لها الإعداد السليم، فالشيخ يرفض أن يقوم بالثورة، قبل أن يتجمَّع لديه ألف مقاتل مع أسلحتهم، ولهذا فقد عملوا على تهدئة المتظاهرين، وعلى تفريقهم وإعادتهم إلى بيوتهم، بعد أن اطمأنّوا على سلامة شيخهم .

ـ ٢١ ـ

جلست مجموعة من إخوان القسام في بيت أبي إبراهيم الكبير، بناءً على طلب من الشيخ القسام، فقال لهم أبو إبراهيم الكبير :

ـ أريد أن نتحدَّث ببعض الأمور قبل أن يحضر الشيخ .

فقال الشيخ سعيد عطية، المصريّ الجنسية :

ـ هات ما عندك يا أبا إبراهيم .

قال أبو إبراهيم الكبير:

ـ ألا ترون أنّ شيخنا يفتح علينا وعلى نفسه في كلّ يوم جبهة جديدة؟.

قال أبو إبراهيم الصغير:

ـ لا بدَّ من عرض الإسلام الصحيح على الناس، بعيداً عن الكذب والشعوذة والبدع، لهذا أنا مع الشيخ في الدعوة إلى الالتزام بالإسلام الصحيح.

والكتاب الذي ألّفه مع الشيخ القصاب أعني كتاب النقد والبيان، فنَّد البدع، وردَّ على أصحابها.

ـ لكنَّه بهذا حرَّض علينا الصوفية.

ـ بل عاد كثير من هؤلاء إلى العقيدة الصحيحة، والتزموا المنهج الذي يدعو إليه الشيخ، أمَّا الدجَّالون والمشعوذون، ففي صفّ الأعداء دائماً.

قال أبو إبراهيم الكبير:

ـ ولكن.. ما كدنا نخلص من أصحاب البدع، حتى فتح جبهة جديدة.

ـ تعني القاديانيين؟.

ـ نعم . . أعني القاديانيين والبهائيين الكفرة .

قال الشيخ عطية العوض :

ـ أنت قلتها يا أبا إبراهيم . . هؤلاء كفار .

ـ وهل سنحارب كل الكفار في كل الدنيا؟ .

ـ لا . . سنحارب مَن يحاربنا منهم . . وهؤلاء القاديانيون يحاربوننا، ويحرّمون الجهاد بأمر من الإنكليز واليهود، وكذلك البهائيون الكفرة .

وقال أبو إبراهيم الصغير :

ـ ثم إنَّهم فتحوا النار على الشيخ، قبل أن يفتح الشيخ النار عليهم، فهم المعتدون وليس الشيخ، ولسنا نحن . . هم البادئون، والبادئ أظلم .

قال أبو إبراهيم الكبير :

ـ تتحدَّثون معي وكأني غريب عنكم، ولا أعرف أولئك الكلاب . .

قصدي أن نقلّل من الجبهات التي نحارب فيها، فما زلنا قلّة، ولم نؤمر بفتح النار الحقيقية عليهم .

ـ بل إنَّ فضحهم أشدّ عليهم من فتح النار الحقيقية . . .

وسمعوا نقرات على الباب، فنهض أبو إبراهيم ليفتح للشيخ الذي دخل، ووجهه مشرقٌ بابتسامة يعرفون معناها ومغزاها.

فبادره الشيخ سعيد المصري:

ـ بشّرْ يا مولانا.

فقال الشيخ:

ـ قبل أن نجلس؟.

وبعد أن تربَّع الشيخ في جلسته قال:

ـ هاتوا البشارة.

فأقبلوا عليه يستفهمون عن البشارة، فقال لهم:

ـ بعض أعضاء جمعية الشبان المسلمين عاهدوا على الكفاح المسلَّح وبايعوا. وأخبار القرى والمناطق تشير إلى إقبال الشباب على العمل المسلَّح، وقد اشتروا كميات لا بأس بها من الأسلحة، والقيادة في جنين وطولكرم ونابلس وقراها مستعدّة للمباشرة، وهم ينتظرون التعليمات على أحرَّ من الجمر.

فهتف أبو إبراهيم الصغير، وهو يطوّح بعقاله نحو السقف:

ـ الله أكبر.. خربت خيبر.

فقال الشيخ في فرح:

ـ هس يا أبا إبراهيم . . استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . . ثم لم نتخذ أيَّ قرار بعد .

قال أبو إبراهيم الكبير بعينين ضاحكتين مستبشرتين :

ـ يبدو أنّ القرار متّخذ يا شيخ عز الدين .

فسأل الشيخ :

ـ مَن اتَّخذ القرار؟ هل هناك غيرنا ليتّخذ القرار؟ .

قال أبو إبراهيم الكبير :

ـ انظر في عيوننا جميعاً . . ألا ترانا قد اتّخذنا القرار؟ .

ـ وأنا؟ ألستُ منكم؟ .

ـ بل أنت شيخنا وقائدنا ، وأنت اتّخذت القرار قبل وصولك إلينا .

قال الشيخ في ابتهاج :

ـ تتألَّى على الغيب يا أبا إبراهيم؟ .

ـ بل أحكم على عالم الشهادة ، قد شهدتُ ، بل شهدنا وقرأنا كلُّنا القرار في عينيك ، وفي ابتسامة البُشرَيَات التي عوَّدتنا عليها .

فضحك الشيخ وقال :

ـ إذن . . فلنبدأ العمل .

ـ كيف؟ من أين نبدأ؟ .

ـ نبدأ برصد الأهداف، واصطيادها في كلّ مكان، وبسريّة تامة .

قال أبو إبراهيم الصغير :

ـ هل الكلُّ مدرَّبون؟ .

فسأله الشيخ :

ـ كم أخاً درّبت يا أبا إبراهيم؟ .

ـ لم أعدّهم .

ـ أنا عددتهم . . كانوا اثنين وعشرين مجاهداً، وكذلك كلُّ أخٍ هنا وفي المناطق الشمالية . . ما من أخ إلا تدرَّب، ثم درَّب عشرة أو أكثر .

قال سعيد المصري :

ـ لديّ هدف قدّ البغل . . سوف آتيك بخبره اليوم .

وقال عطية العوض :

ـ وأنا عندي هدف أصغر من هدفك حجماً يا شيخ سعيد، ولكنه أثمن .

ولم تمضِ ساعة، حتى أقسم الجميع وتعاهدوا على السريّة المطلقة، وعلى ألاّ يصيبوا بريئاً بأذى، وأن يتّقوا الله في سائر أحوالهم،

ثم نهض الشيخ وقال:

ـ أترككم في حفظ الله وأمانه، اقرؤوا معي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

ـ ٢٢ ـ

اتسعت دوائر نشاط الشيخ، بعد أن اختير رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا، وبعد أن صار مأذوناً رسمياً شرعياً، يخرج إلى القرى والبلدات المحيطة بحيفا، لإجراء عقود الزواج، وكان يحضر الأفراح والأعراس والولائم، ويدعو أبناء الشعب الواحد إلى التَّحابّ، ونبذ الفرقة، والبعد عن التخاصم فيما لا يعود إلا بالخزي والعار والأذى على المتخاصمين، فليس للفلسطيني من عدوٍّ سوى الإنكليز واليهود الذين جاؤوا ليطردوه، ويستوطنوا هم مكانه، وقد لقيت هذه البذور الطيّبة أرضاً طيبة، ونفوساً رضية، فآتت أُكلها سريعاً، وصار الشيخ مرجعاً لأبناء المنطقة الشمالية، يهتم لهمومهم ويسعى لحلّ مشكلاتهم، وفضّ خصوماتهم فيما بينهم، وإعانة المحتاجين منهم، كما كان صيّاداً ماهراً، خبيراً بالنفوس ومعرفة الرجال، فكان ينتقي من هؤلاء من يثق به، ويجعل من هؤلاء ركائز لتنظيمه السرّي الذي بدأ عمله في ذلك المثلث العربي: جنين، ونابلس، وطولكرم، فقد شهدت هذه المدن علميات اغتيال واسعة لضباط الإنكليز، ولعدد من الشخصيات

اليهودية، وللمتعاملين مع الإنكليز أو اليهود من سفلة العرب، وهؤلاء لا يخلو منهم مجتمع.

واتّجه الشيخ في خطبه ودروسه نحو التحريض السافر على اليهود، والدعوة إلى الاستعداد لمواجهة أعداء الله، والدفاع عن الأرض والحرمات والمقدَّسات.

وكان الإنكليز واليهود قد بثُّوا جواسيسهم، يتسقطون أخباره، وينقلون إليهم أقواله وتصريحاته وخطبه.

وذات يوم، نُمي إلى المسلمين أنَّ اليهود يستعدّون للهجوم على جامع الاستقلال، فخاف الوجهاء من صدام دام غير متكافئ، بين اليهود من جهة، وبين المدافعين عن الجامع من جهة أُخرى. فبادروا إلى إعلام الإنكليز، وطلبوا منهم حماية المسجد من ذلك الهجوم المرتقب، فثار القسام ثورة جامحة، ورفض تصرّف أولئك الوجهاء، وعدّه تصرّفاً جباناً، ووقف في الناس خطيباً وقال:

ـ إنَّ جوامعنا يحميها المؤمنون منّا...

إنَّ دمَنا هو الذي يحمي مساجدنا، لا دم الآخرين.

وعندما استعدَّت السلطات الحاكمة للتحقيق معه، لم ينكر ما قاله في خطبته، فقال له حاكم حيفا:

ـ يا شيخ إنّك مشبوه وذو نشاط مناوئ لنا، ونحن نرصد حركاتك ونحذّرك.

فأجابه الشيخ عز الدين، وهو يلوّح بمصحف أخرجه من جيبه:

ـ اسمع أيها الحاكم.. إنَّ هذا الكتاب العظيم يأمرنا بالجهاد، ونحن لا نخالفه.

قال الحاكم الإنكليزي:

ـ هذا إنذار أخير لك أيها الشيخ..

وخرج الشيخ في شموخ المسلم وعزّته، دون أن تهتزَّ منه شعرة من تهديد ذلك الحاكم الدخيل، واستمرَّ في حياته الطبيعية، كأنَّ شيئاً لم يكن، يغدو ويروح إلى المسجد، وإلى البيوت والمضافات، وإلى القرى والبلدات المجاورة، يسهر ويمزح، ويضاحك الناس، ويؤاكلهم وينام عندهم، وبهذا فوَّت على الجواسيس ما كانوا يترصَّدونه به، وفي الوقت نفسه، كان يتّصل بإخوانه، ويتعرَّف على أحوالهم، ويطلب منهم أن يظهروا بالمظهر العادي الذي يعرفهم عليه الناس، مخافة المخبرين.

واستمرَّ الشيخ في خطبه التحريضية، وهو يعلم أنَّ المخبرين ينقلونها إلى أسيادهم، وكان هذا التصرّف يظهره أمام الإنكليز واليهود معاً، بأنه شيخ يجيد الكلام، ولا شيء وراء هذه الكلمات الحماسيّة التي قد تؤثر ببعض الشبان، فيقومون ببعض العمليات، أمّا هو، فقد أفاد المخبرون بأنّه بعيد عن العمليات العسكرية، لأنهم لم يستطيعوا أن يلحظوا أيّ خيط يربطه بتلك العمليات، كما أنه يمارس حياته العادية

التي يعرفها كلُّ مَن يعرفه، ولولا خطبه لكان كسائر المشايخ في الريف، وإنْ كان بعضهم قد لاحظ تصاعداً في التحريض والدعوة إلى الثورة، عندما وقف خطيباً، وأخرج مسدّساً من عبّه، ورفعه أمام العيون الشاخصة إليه، وقال لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشترِ مثل هذا.

وجاء في تقرير عن خطبة أخرى له، دعا فيها الناس إلى شراء السلاح والتدريب عليه، وقال لهم:

ـ يجب أن تقاوموا الإنكليز واليهود.

فقام رجل وقال:

ـ بماذا نقاومهم يا شيخ، ونحن لا نملك شيئاً؟.

فأجابه الشيخ:

ـ اقتلوهم، وخذوا أسلحتهم منهم، وحاربوهم بها.

وكتب مخبر آخر عن خطبة أخرى، قال الشيخ فيها:

ـ رأيتُ شباناً يحملون المكانس لكنس الشوارع.. هؤلاء مدعوُّون إلى حمل البنادق.. ورأيت شباناً يحملون الفراشي لمسح أحذية الأجانب.. هؤلاء مدعوّون لحمل المسدسات لقتل أولئك الأجانب.

وحمل تقرير ثالث عن خطبة أخرى:

ـ أيّها المسلمون . . لقد علّمتكم أمور دينكم، حتى صار كلُّ واحدٍ منكم عالماً، وعلّمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد . . ألا هل بلّغت؟ اللهمَّ فاشهد .

وكانت تواكب هذه التقارير عن خطب الشيخ، تقاريرُ أخرى عن ازدياد عمليات الاغتيال، ونسف القطارات، ومهاجمة ثكنات الإنكليز، وبعض المستعمرات، حتى دبَّ الذعر في نفوس الإنكليز واليهود معاً، وتكاثفت الدوريات الليلية والنهارية، ولم يعد يجرؤ الضابط والعسكري على السير وحده في مناطق ذلك المثلث العربي المخيف، لأنَّ العمليات كانت تنفَّذ بدقّة وإحكام وسريّة رائعة .

وصارت الرقابة صارمة على باعة الأسلحة، بعد أن أقبل جماعة القسام على شرائها بأيّ ثمن، لأن الشيخ القسام كان يأمرهم أن يبيعوا كل ما يملكون، ويشتروا السلاح والذخيرة، وكان جنود الإنكليز وضباطهم، يبيعون أسلحتهم، ثم يزعمون أنهم فقدوها، أو أنها سُرِقت منهم، وكذلك كان يفعل السماسرة من اليهود الذين كانوا يبيعون أعراضهم في سبيل الحصول على المال .

ـ ٢٣ ـ

أدرك الشيخ عزّ الدين أنَّ أمره قد انكشف، أو كاد، فالرقابة تحصي عليه وعلى مَن حوله أنفاسهم، وترصد تحرّكاتهم، وحالة الكمون التي تظاهروا بها في السابق، تمويهاً على العدوّ المتربّص بهم،

لن تجديهم الآن نفعاً، وأفراد التنظيم في حالة غليان، والشعب كله في حالة غليان، والوضع مهيَّأ للانفجار في أي لحظة، فالهجرات اليهودية على قدم وساق، ومصادرة الأراضي، وطرد أصحابها الفلاحين منها يتمَّان في وقاحة تحت سمع الشعب وبصره، واعتداءات اليهود على العرب المسلمين قد أسفرت عن التوجهات الدموية الإجرامية لأولئك المهاجرين القادمين من المجهول.

وكانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، باخرة ضخمة رست في ميناء يافا، وعلى ظهرها خمس مئة برميل من الإسمنت، ثم تبيَّن أن تلك البراميل محشوَّة.. بالأسلحة الحديثة، بآلاف المسدّسات والرشاشات والبنادق والذخائر والقنابل، كما ظهر للناس أنَّ هذه الباخرة ليست الباخرة الأولى التي تحمل الموت والدمار للشعب الفلسطيني، بل سبقتها بواخر وبواخر، كانت تهرّب الأسلحة لليهود، وكان الإنكليز متواطئين مع اليهود في هذا، الأمر الذي ينذر بأخطار الموت واقتلاع الشعب من جذوره.

دعا الشيخ عز الدين أعضاء قيادة تنظيمه إلى اجتماع عاجل، وشرح لهم ما ليس خافياً عليهم من تردّي الأوضاع، واستهتار اليهود والإنكليز، وتجاوزاتهم الوقحة، واعتداءاتهم اليومية على أبناء الشعب، ثم قال:

ـ أعتقد أنَّ الوقت قد حان لإعلان الثورة، والجهاد المقدَّس.

فتهلّلت الوجوه واستبشرت، فقد طالما حنّوا إلى الإعلان عن حركتهم، فإمّا النصر، وإما الشهادة في سبيل الله.

قال الشيخ القسام:

ـ سوف أرسل إلى المفتي، لعلّه يحرّك رجاله في الجنوب، ونحن نتحرّك في الشمال، ويكون الإنكليز واليهود بين فكّي كمّاشة الشعب.. لعلّنا بهذا نقضي على فكرة الوطن القومي لليهود.

فقال أبو إبراهيم الكبير:

ـ جواب المفتي معروف.. لم يحن الوقت ـ بعد ـ لإعلان الجهاد.

قال الشيخ عز الدين:

ـ سوف يحاول الشيخ كامل القصاب إقناعه.. سوف يشرح له الموقف المخزي للأحزاب السياسية التي تتناحر في هذا الظرف العصيب الدقيق، وسوف يتمكّن من إقناعه ـ بعون الله ـ أن الثورة المسلّحة هي الطريق الوحيد لمواجهة الإنكليز واليهود معاً.

قال أبو إبراهيم:

ـ أرجو، يا مولانا، أن لا تعرّض الشيخ كامل لخطر اللقاء بالمفتي، فالمفتي مراقب، والعيون ترصد الشيخ كامل.. عيون الإنكليز واليهود مفتوحة على مصاريعها يا مولانا، والشيخ كامل صيد ثمين لهم.

ـ ولكنّه التقى المفتي قبل اليوم مراراً.

ـ اختلف الظرف الآن.

قال الشيخ عز الدين:

ـ لا تخافوا على الشيخ كامل، فهو يتزيّا في كلّ مرة بزيّ يموّه به نفسه، فلا يعرفه أقرب المقرّبين إليه.

قال أبو إبراهيم وهو يزفر:

ـ معذرة يا مولانا، أنت تضرب في حديد بارد.. وبهذا تضيّع الوقت.. وسوف ترى صدق ما أقول.

فقال الشيخ الذي بدا عليه الضيق:

ـ معذرة إلى ربّكم.. وحتى لا يتحدَّث الناس، ولا نترك للشيطان سبيلاً إلى النفوس، فيزعم لهم أنّنا قصَّرنا في الاتصال بالقيادة وزعماء الشعب، وعلماء الدين، وأننا أردنا أن نستأثر بالجهاد ونجعله حكراً علينا.

فابتسم أبو إبراهيم وقال:

ـ يحسدوننا على الموت! نستأثر بالجهاد؟! أليست الساحة واسعة تتسع لكل الشعب، فلماذا لا يقدمون؟!.

وقال الشيخ الحنفي:

ـ أرى أن نترك للشيخ عز الدين حريّة التصرّف، والعمل، فالوقت أضيق من أن يتسع لمثل هذه المناقشات.

فقال الشيخ عز الدين:

ـ لا يا شيخ محمد.. نحن في هذا الوقت أحوج ما نكون إلى الشورى، ورقبتي أضيق من أن تتسع لدماء غير دمائها.

قال أبو إبراهيم الكبير:

ـ أنا مع الشيخ الحنفي في ترك الأمر لك يا مولانا الشيخ، أنت قائدنا، وأنت محيط بالظروف والرجال والإمكانات، واعتراضي فقط على مراجعة المفتي في هذا الشأن، لأننا جميعاً نعرف رأيه. إنه غير مؤمن بالعمل العسكري لحسم القضيّة الآن على الأقلّ.. إنه ما يزال يرى إمكانية الحلّ السياسي، ونحن قد انتهينا من هذا الأمر منذ سنوات.. ومع ذلك أقترح عليكم ما يلي:

أن يذهب الشيخ كامل لحثّ المفتي على إعلان الجهاد، وأن نخرج نحن إلى القرى، لنحثّ الناس على الالتحاق بالثورة.

فقال القسام:

ـ رأي وجيه.

وقال الحنفي:

ـ وأنا موافق عليه.

ووافق سائر الأعضاء على رأي أبي إبراهيم الكبير، وانطلق الشيخ القصاب في آخر مهمة له في حياة القسام نحو المفتي، فيما انطلق الآخرون نحو البلدات والقرى المحيطة بحيفا، يدعون الناس إلى حمل السلاح، وإلى التدريب لمقاتلة أعداء الله من اليهود والإنكليز، ويشرحون لهم الأخطار المحيطة بفلسطين شعباً وأرضاً ومقدّسات، خاصة بعدما انكشفت عمليات التهريب الواسعة للأسلحة والذخائر، حتى صارت المستعمرات اليهودية أشبه بالثكنات العسكرية، والوقت ليس في صالح المسلمين، وكلّ يوم يمرّ، يكسب اليهود المزيد من الرجال والأرض والسلاح، ويتراجع المسلمون، وإذا لم نهاجم اليهود فإنّ اليهود سوف يهاجموننا، وسوف يؤيدهم الإنكليز ويقدّمون لهم كل مساعدة...

ـ ٢٤ ـ

اختار الشيخ عز الدين منطقة جنين وقراها مركزاً يحشد فيه المجاهدين، وترك بعض إخوانه المجاهدين فيها، ليتابعوا اتصالاتهم بالناس، ثم عاد إلى حيفا ليلتقي هناك قادة المجموعات التي أبقاها فيها، لتنفيذ الخطة التي وضعوها، وتقضي باحتلال مدينة حيفا، بالهجوم عليها من القرى المحيطة بها، ومن المجموعات التي بقيت فيها لهذا الغرض.

ودعا الشيخ قيادة التنظيم إلى اللقاء، وأطلعهم على الموقف العام في البلاد، وشرح لهم ما قام به هو وإخوانه في جنين ونابلس وطولكرم وقراها، وطلب منهم أن يعملوا بصمت وكتمان، حتى يتمكّنوا من بيع كلّ ما يملكون من متاع، ويشتروا به أسلحة، كما طلب منهم أن يبيعوا بيته الذي لا يملك غيره في حيفا، ويشتروا بثمنه أسلحة وذخائر، ثم قال لهم:

ـ سوف أخطب آخر خطبة في مسجد الاستقلال، وأدعو فيها إلى الجهاد، ثم أعلن استقالتي من وظائفي كلّها.

فقال أبو إبراهيم الكبير:

ـ هل جهّزتم السيارة التي ستقلّكم إلى الجبل؟.

فردَّ الشيخ في اطمئنان:

ـ البركة في الشيخ كامل، فقد هيّأ كلّ شيء.

فقال أبو إبراهيم:

ـ هل من جديد في موقف المفتي؟.

ـ لا.. بقي مصرّاً على موقفه، فالوقت ـ في رأيه ـ لم يحن بعدُ لإعلان الجهاد.. هذا هو رأيه الذي أعرفه قبل إرسال الشيخ القصاب إليه.

فقال أبو إبراهيم: على أي حال لم نخسر شيئاً.

وقال الشيخ عز الدين:

ـ قوموا الآن إلى أهلكم، واستودعوهم الله، وعاهدوهم على اللقاء في الجنة، وليحمل كل منكم مصحفه في جيبه..

ووقف على منبر جامع الاستقلال، وألقى آخر خطبة له فوقه، حشد فيها من المعاني الجهادية الحماسيّة، ما جعل المصلّين يهتزّون ويبكون ويهتفون، وهو يفسّر لهم قول الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال:

ـ اليهود هم اليهود، قوم فاسدون مفسدون مجرمون، ارتكبوا من الجرائم والخيانات الشيء الكثير، في كل أرض وطئوها، وفي كلّ بلدة احتلّوها.. ذبحوا أهل أريحا عندما جاؤوا محتلّين قبل أربعة آلاف عام، وتآمروا على نبينا عليه السلام، حاولو اغتياله، حاولوا قتله، حاوله سمّه، بل دسّوا له السمّ في الطعام، تآمروا على المسلمين في غزوة الأحزاب، وحرّضوا المشركين على المسلمين في غزوة أحد، وكانوا هم البادئين دوماً في عدوانهم على العرب والمسلمين، على مدى الزمان، واقرؤوا التاريخ يجبكم، واستقروا واقعهم الآن، لتروا مدى الإجرام عندهم في كل لحظة وآن ومكان...

ثم تحدَّث عن الإنكليز فقال:

ـ وأما هؤلاء الإنكليز، فهم كاليهود نذالةً وخسةً وإجراماً، نقضوا العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم للعرب الذين أغروهم بالثورة على العثمانيين، خانوا العرب الذين قاتلوا إلى جانبهم، ووعدوا اليهود بوطن قومي في فلسطين، كانوا يصافحون العرب بيد، ويطعنونهم باليد الأخرى.. أفلا تهبّون لقتال تلك الكلاب الضالة التي جاءت لتنهش أجسامكم وأعراضكم؟ أم أنكم تخشون الموت في سبيل الله؟!.

كان الشيخ عز الدين يخطب بصوت كالرعد، وكانت الهتافات الحماسية تتجاوب أصداؤها بين جنبات المسجد الذي اكتظَّ بالمصلّين، كما تتجاوب بها قلوب المصلّين وعقولهم، وتختلج لها أجسادهم..

وكان الشيخ يهدر هدير الموج المتلاطم، وهو يصبّ معاني الجهاد والاستشهاد في أسماعهم لتتشربها قلوبهم، ثم نادى بأعلى صوته:

لبّيكِ يا فلسطين الحبيبة..

لبّيكِ يا قدس المجد والشموخ.

لبّيكَ يا أقصى الإسراء والمعراج.

لبّيكَ يا عمر.. يا فاتح القدس ومنقذها من أيدي الروم...

لبيكَ يا صلاح الدين.. يا محرّر القدس من أيدي الصليبيين.

فتعالت الهتافات حتى طغت على صوت الشيخ، فتوقّف قليلاً، ثم نادى:

يا قدس.. يا عرين الأسود.. يا ملاذ المستأمنين..

يا قدس.. يا موئل الأحرار والمناضلين..

يا قدس.. يا ظئر العروبة والإسلام..

ستبقين القلعة المنيعة لسائر العرب والمسلمين.

لا تزعزعك الزعازع..

ولا تحركك الهزاهز والأعاصير..

ولا تخيفك ضباع البشرية، ولا أوباش المارقين..

ترعاكِ عينُ الله..

ويحرسكِ جندُ محمد..

يسيرون بك من نصر إلى نصر..

وهم يخوضون سوح المنايا، وميادين القتال..

شعارهم في ذلك قول الرسول القائد ﷺ:

«بل الدم الدم..

والهدم الهدم..».

فهذا هو الجهاد . .

جهاد نصر أو استشهاد . .

فالله أكبر . .

الله أكبر . .

خربت خيبر . .

وسوف تسفيها الرياح الهوج . .

فلا تُبقي لليهود من باقية . .

فيا رياح الجنّة هبّي . .

لتحملي أرواحنا على سحائب من عبير . .

فقد اشتقنا إلى حواصل طيورك الخضر . .

تدعونا ثارات الشهداء الميامين عبر الدهور . .

منذ أول دم أُريق على هذا الثرى الطهور . .

إلى دماء المتظاهرين بالأمس القريب . .

أولئك الذين سقطت أجسامهم برصاص الإنكليز الغادرين . .

فيما ارتفعت أرواحهم إلى عليين .

وأعلن الشيخ في الخطبة الثانية استقالته من وظائفه، وقال :

ـ قد قرّرنا إعلان الجهاد المقدّس . .

فلم يعد في قوس الصبر منزع . .

وسوف أتوجّه مع إخواني المجاهدين إلى الجبال .

فمن شاء منكم أن يكتبه الله في المجاهدين . .

فليحمل سلاحه . .

وليعلن غضبه . .

وليلحق بكتائب المجاهدين . .

هنا وهناك وهنالك . .

فكل المدن والقرى الفلسطينية ساحات للقتال . .

وقبل أن يرفع كفيه للدعاء، سكت هنيهة ثم قال :

ـ أنا خارج من هنا، ولن أعود إلى هذا المسجد إلا منتصراً، أو شهيداً يُصلّى عليّ .

ولم تمضِ ساعة على انقضاء الصلاة، حتى كانت السلطات الإنكليزية تبحث عن الشيخ في كل مكان، فقد اختفى الشيخ فجأة، فلم يعرف أحد أين هو؟ ولا إلى أين ذهب، إلا إخوانه الذين كانوا ينتظرونه في السيارة التي كانت تقف أمام باب المسجد، وإلا إخوانه الذين صحبوه بأسلحتهم إلى الجبال، بعد أن أوصلوا قصاصة ورق، كتب فيها

الشيخ القسام إلى أحد أصدقائه المخلصين، إلى رشيد الحاج إبراهيم:

«إني واثق من نفسي، وإنّ صوتي سيجد صداه في كلّ مكان عند أول صيحة، ونستودعك الله، راجين من المولى تعالى، أن يوفّقنا في أعمالنا لتحرير الوطن».

-٢٥-

توجَّه الشيخ عز الدين مع ثلّة من إخوانه إلى منطقة جنين، حيث كان الشيخ فرحان السعدي ينتظرهم في قرية (نورس). وكان بالقرب من تلك القرية مغارة في أحد جبالها، وفي تلك المغارة، اتفق الشيخ مع إخوانه على أن يتوزّعوا في جنين وقراها، ليتّصلوا بأهلها، ويشرحوا لهم أهداف الثورة على الإنكليز واليهود، ويحضّوهم على الالتحاق بركب المجاهدين، لأنَّ تواطؤ الإنكليز مع اليهود ضدَّ العرب صار مكشوفاً لكلّ ذي عينين، ولمن لديه أدنى مسكة من عقل أو ضمير، فالجهاد صار فرض عين على كلّ قادر على حمل السلاح، للدفاع عن الدين والأرض والعرض والمقدَّسات.

وكان أكثر أهل تلك المنطقة، يعرفون الشيخ القسام، ويثقون به، ويضربون الأمثال بصدقه وأمانته وإخلاصه وتقواه، ولهذا استجاب لهم كلّ من اتصلوا به، وصار الناس يبيعون حليّ نسائهم، وبعض ما يملكون، ويشترون به أسلحة وذخائر.

وكادت مخططات الشيخ تنجح، لولا هذا الحادث العارض الذي

تسبّب في كشف موقع الشيخ وإخوانه، وكانت المعركة المبكّرة قبل أوانها. . فبعد يومين من تمركز الشيخ، خرجت دورية من الشرطة تطارد بعض اللصوص الذين سطوا على إحدى المزارع اليهودية، وسرقوا بعض الحمضيات منها. . كانت الدورية بقيادة شاويش يهودي، ومعه شرطي عربي، وآخر إنكليزي، تجوب تلك المنطقة، تفتّش عن اللصوص، ورآها حارس المجاهدين، فظنَّها تفتّش عنهم، وأنها قد اكتشفت مكانهم، وعرف اليهودي قائد الدورية وأنه تحت سيطرة نيرانه، فأمرهم الحارس بالاستسلام، فلم يستسلموا، فما كان منه إلا أن يقتل ذلك الشاويش، وكان في إمكانه قتل الشرطي العربي، ولكنّ تعليمات شيخه القسام كانت ترفض قتل الشرطة العرب، لأن هؤلاء مسلمون ومساكين، وقد يكونون مع المجاهدين، عندما يتهيّأ لهم مَن يشرح لهم الموقف شرحاً وافياً وسليماً. . ففرَّ العربيُّ ومن معه، ناجين بأرواحهم. .

وسمع الشيخ وصحبه أصوات الرصاص، فبادروا إلى أسلحتهم، وخفّوا إلى المواقع التي كان الشيخ قد عيَّنها لهم، ولكنّهم عندما عرفوا جليّة الأمر، أدركوا مدى خطورة هذا الحادث الذي أفقدهم عنصر المباغتة، كما كشف موقعهم، وفوّت عليهم فرصة الاتصال بأكبر عدد ممكن من أبناء القرى، ليكونوا مع المجاهدين.

عاد الشيخ وصحبه إلى المغارة، وقال لهم:

ـ سوف يذهب الشرطة الناجون إلى أقرب مخفر، ليبلغوا عن الحادث، وهذا يعني أنّ الإنكليز سيرسلون قوات كبيرة إلى هنا، لتطويق المنطقة، وتمشيطها، بحثاً عنّا.

قال الشيخ نمر السعدي:

ـ هل تظنّ، يا مولانا، أنّهم عرفونا؟ أم أنّهم يظنّوننا مجموعة من اللصوص وقطّاع الطرق؟

أجاب الشيخ عز الدين:

ـ بل سيعرفون أنّ الفاعلين نحن.

ـ لماذا؟.

ـ أولاً: لأننا لم نقتل الشرطي العربي، ولو كان الفاعلون لصوصاً، لما وفّروا عربياً ولا إنكليزياً.

ثانياً: لأنني أعلنتُ الجهاد من على المنبر، ثم اختفيت، وقد علمتم أنهم وضعوا جائزة لمن يدلّ عليّ.. وهذا يعني أن المخبرين السرّيين ناشطون في البحث عني وعنكم.

فقال الشيخ نمر:

ـ إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك والله أعلم، فإني أقترح أن نغادر مكاننا هذا فوراً.

فقال الشيخ عز الدين :

ـ وهو كذلك . . ولكن . . إلى أين؟ .

ـ إلى قرية (البارد) مثلاً .

قال الشيخ عز الدين، وهو ينهض واقفاً :

ـ هيّا أيها الإخوان . . هيّا . .

لم يستسلم الشيخ إلى الراحة في قرية (البارد) بل وزَّع إخوانه على عدّة مواقع، لصدّ أيّ هجوم على القرية، فقد كان الشيخ وصحبه، يتوقعون كلَّ شيء من السلطة الإنكليزية التي لن تسكت على قتل أحد عناصرها . .

وقد كان ما توقَّعه الشيخ وصحبه، فقد زجَّت السلطة الحاكمة بقوات كبيرة إلى تلك المنطقة، وطوَّقت بعض القرى، واعتقلت بعض رجالها، وحقَّقت معهم لمعرفة المزيد من المعلومات عن العصابة المجرمة التي تسرق وتقتل وتروّع الناس . . هكذا كانوا يزعمون لأولئك القرويين المساكين . .

وكانت قرية (البارد) من تلك القرى المستهدفة، فقد طوَّقتها قوة من الشرطة، والشيخ وإخوانه يرقبون تلك القوة، حتى إذا تقدَّمت نحو مواقعهم، فتحوا عليها النار، وكانت معركة حامية، استشهد فيها المجاهد محمد الحلحولي، وقُتل فيها اثنان من الإنكليز، وفرَّ الباقون ظنّاً منهم أنهم يقاومون قوة كبيرة من المجاهدين، لا عصابة من اللصوص .

ـ ٢٦ ـ

جنَّ جنون القوات الإنكليزية من هذه المعركة، وطار صواب اللجنة الصهيونية، فدعا المندوب السامي الإنكليزي إلى لقاء عاجل في مقرّه، وبحث مع أعوانه من الإنكليز واليهود ما كان من أمر تلك المعركة، فقال أحد اليهود أعضاء اللجنة الصهيونية:

ـ الأمر واضح كالشمس.. الشيخ القسام المتعصّب المعادي للإنكليز واليهود ولكل النصارى، ولكلّ من ليس مسلماً، سوف يشعل البلاد بنيران الثورة علينا، إلا إذا قضينا على ثورته في المهد.. حالاً..

وقال عضو آخر في اللجنة الصهيونية:

ـ هؤلاء المشايخ يجب إعدامهم.. يجب إعدام كل من يتعرَّض للإنكليز واليهود في خطبه ودروسه وأحاديثه.. تركتم الشيخ القسام حتى استفحل خطره، وخرج إلى الجبال يدعو الناس إلى حمل السلاح، وإلى الحرب الشعبية التي تحرر فلسطين من الإنكليز ومن اليهود معاً.. لهذا أرى أن نضرب حركته ضربةً قاضيةً فوراً، حتى لا يفكّر من يأتي بعده من المشايخ بالثورة علينا.

فقال المندوب السامي الإنكليزي، وكان صهيونيّ التفكير والولاء:

ـ هذا ما أفكّر به.. يجب القضاء على القسّام وعصابته.. يجب

تصفيتهم جسدياً في الجبال، ومعنوياً بإثارة الشبهات حولهم، واتهامهم بالاتصال بالقناصل الأجانب، وقبضهم الأموال والسلاح منهم، ثم... أن نقنع الفلاحين البسطاء، بأنَّ هذا الشيخ الشامي وإخوانه السوريين، هاربون من حكم العدالة والقانون في سورية، بعد قيامهم بسرقات وأعمال قتل ونهب، حتى حُكم عليه وعلى بعض أفراد عصابته بعقوبة الإعدام، وقد هرب إلى هنا، ليتابع مع عصابته، ما كان فعله في سورية، من جرائم القتل والسلب والنهب.

فقال اليهوديّ الأول:

ـ هذا مهمٌّ جداً.. تشويه سمعته وسمعة من معه مهمٌّ جداً، ولكن بعد القضاء عليه وعلى عصابته.

فقال الصهيونيّ الثاني:

ـ بل نسير في كلا الطريقين، كما قال صاحب الفخامة، المندوب السامي.. نبادر إلى قطع دابرهم، واستئصال شأفتهم، واجتثاثهم من جذورهم، ونشوّه سمعتهم في الوقت نفسه.

فقال المندوب الإنكليزي:

ـ أرى أن لا نضيّع الوقت.. سوف أحشد من القوات ما هو كفيل بالقضاء عليهم خلال ساعات.

ـ نحن مطمئنون إلى أنَّ قادة بريطانية العظمى، سوف يحافظون

على شرفها، وتنفيذ وعدها لليهود، في إقامة دولة لهم، ووطن قوميّ قويّ على أرض فلسطين . .

فقال المندوب الإنكليزي، وهو يشدّ ـ أيضاً ـ على يد رفيقه اليهودي:

ـ هذا ما نسعى إليه، فالضمير الإنكليزي سيبقى قلقاً، حتى يطمئن اليهود فوق هذه الأرض الفلسطينية.

فتابع اليهودي الثاني:

ـ وهذا لن يكون إلا بقتل كل المسلمين المتشدّدين.

وقال الآخر:

ـ وطرد من يمكن طرده من هؤلاء المسلمين المتعصّبين.

فقال المندوب الإنكليزي الصهيوني:

ـ وكلّ المسلمين هنا متعصّبون، متشدّدون . . .

ـ إذن . . على بريطانية العظمى أن تطردهم جميعاً . .

ـ أو تقتلهم جميعاً . .

ـ وخاصة المشايخ والمجاهدين، من أمثال القسام وعناصر عصابته.

فردَّد المندوب الإنكليزي:

ـ وخاصة المشايخ والمجاهدين، من أمثال القسام وعناصر عصابته.

ـ ٢٧ ـ

في الربع الأخير من الليل، أيقظ القسام رجاله، فنهضوا إلى وضوئهم، وبعد أن انتهوا من ركعات التهجّد، قال لهم الشيخ:

ـ نمنا واسترحنا والحمد لله، ولم يبقَ على بزوغ الفجر إلا قليل، وهذا يعني أنَّ المنطقة سوف تطوَّق بعد ساعات.

فقال الشيخ الحنفي:

ـ ما رأيك يا مولانا أن نصلّي في مواقعنا؟.

فقال عربي البدوي:

ـ أرى أن نتوزّع إلى فريقين، فريق يذهب إلى الشمال، لتحريض الأهالي، والاستعداد للمعركة، وفريق آخر يبقى في هذه المناطق، بعيداً عن نورس والبارد، علماً أن نلتقي جميعاً في (الوادي الأحمر) بين نابلس والغور

فقال الشيخ عز الدين:

ـ هذا رأي سليم، أرى أن نبادر إلى تنفيذه فوراً، فالوقت ليس في صالحنا.

وحاول كل مجاهد أن يكون في الفريق الذي يقوده الشيخ،

وتجلّت العواطف الصادقة في حبّ الجميع للشيخ، وتمسّكهم به وبقيادته، وفاضت العيون في لحظات الوداع، وتواثق الجميع على الصبر والثبات في المعركة، والاستمرار فيها حتى النصر أو الشهادة، وبقي مع الشيخ أحد عشر مجاهداً، وسمع الشيخ ومن معه صوتاً يقول:

ـ اللقاء في الجنة يا شيخ عز الدين.

فردَّ الجميع:

ـ إن شاء الله.

وقال الشيخ القسام بأعلى صوته:

ـ اللقاء في الفردوس الأعلى إن شاء الله.

فردَّدت جنبات الجبال في جوف الليل الساجي:

ـ إن شاء الله.

وتناهى إلى الجميع صوتٌ ينادي:

ـ يا أحراش (يعبد).. نستودعكِ شيخنا وقائدنا القسام..

يا أحراش (يعبد).. يا أحراش (يعبد)..

فقال الشيخ عز الدين وهو يغالب دمعه:

ـ هيّا إلى مواقعكم يا إخوان.

فقال البدوي:

ـ وصلاة الفجر يا مولانا؟.

فردَّ الشيخ القسام:

ـ كما قال أخونا الحنفي.. نصلّيها في مواقعنا.. كلٌّ واحد يصلّي في موقعه.

فقال البدوي مازحاً:

ـ ذاك حنفي، وأنا شافعي يا مولانا.

فهدَّأت النكتة من روع الشيخ وقال:

ـ هيّا يا بدوي لا تضيّع الوقت.

وانطلق كلٌّ مجاهد إلى موقعه، يسبّح الله في السَّحَر، ويستمع إلى كلّ نأمة، ويراقب، قدر استطاعته من بين فروج الأشجار المتعانقة، كأنها تخشى على هؤلاء المجاهدين مما تخبّئه خيوط الفجر، فتحاول أن تحدب عليهم، وتؤخر ضوء النهار، ليكونوا تحت ستر الليل، وسدود الحرش الحاني.

وعندما تناهى إليهم أذان الفجر، قاموا إلى صلاتهم، فصلّوها فرادى، ثم دعوا اللهَ مخلصين، أن يرزقهم الشهادة في سبيله، إذا لم يكتب لهم النصر على أعدائهم..

وفيما كانوا في ابتهالاتهم، سمعوا صوت طيارة تحوّم فوق تلك المنطقة الآمنة، فقضت على أمنها وهدوئها بضوضائها التي تحمل معها الموت والدمار، ثم سمعوا هدير سيارات من بعيد، وصهيل خيول، فأدركوا أنّهم مطوّقون، وأنهم أُحيطَ بهم من كلِّ جانب، فصرخ الشيخ بصوته الجهوريّ:

ـ طاب الموتُ أيّها الإخوان.. موتوا شهداء أيّها الأبرار..

واستعدَّ الشيخ وإخوانه للموت، واستبشروا بلقاء الله تعالى، فالقوات المحاصرة كبيرة كبيرة، إذا قيست بعددهم القليل، وعُدَدهم المتواضعة، ولكنَّ إيمانهم كان يزن جبال الكرمل وجنين، وأحراش (يعبد) التي تحاول أن تحميهم من النيران التي انصبَّت عليهم من كلّ اتجاه..

فوجئ الشيخ وإخوانه بأن الصفوف الأولى من المهاجمين كانوا من العرب الذين يعملون تحت سلطة الإنكليز، وكانت وصيّته لإخوانه بأن لا يقتلوا مسلماً أبداً، بينما كان أولئك العرب يضربون كما يضرب الإنكليز من خلفهم، لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا من يضربون..

وجاءت صيحات المعتدين الغزاة، تطلب من الشيخ أن يستسلم هو وإخوانه، فلا نجاةَ لهم، لأنَّ (يعبد) وأحراشها وجبالها مطوَّقة، وليس لهم إلا الاستسلام، ولكنَّ الشيخ المجاهد أبى أن يستسلم، ونادى بإخوانه:

ـ يا إخواني.. موتوا شهداء.. فالمنيّة ولا الدنيّة..

وصار الشيخ يتنقل من صخرة إلى صخرة، ومن شجرة إلى شجرة، وهو يقاتل بمسدسه تارة، وببندقيته تارة أخرى، وهو يدعو ويبتهل، ويقرأ آيات الجهاد، ويشجّع إخوانه.. كان كالليث الهصور في خوض أمواج المنايا، يوزّع أوامره، ويعطي تعليماته، ويشير إلى الأهداف المعادية، ويضرب ويضرب ويضرب، وقبل أن تنفد ذخيرته، اخترقت جسده الطاهر بضع رصاصات، فتسجّى الجسد الطهور على أرض الحرش، واستقرّت العمامة الشامخة فوق صخرة قريبة، كأنّها تتحدّى بشموخها، عدوان الأقزام، والشفتان اليابستان تتحركان بكلماتٍ وعتها أشجار حرش (يعبد):

ـ هذا جهاد.. نصر أو استشهاد.

وخطّت شمس الأصيل التي شهدت مصرع الشيخ وإخوانه، هذه الكلمات:

في هذه اللحظات من أصيل اليوم العشرين، من تشرين الثاني، عام ألف وتسع مئة وخمسة وثلاثين، أشعلت روح المجاهد الشهيد الشيخ عز الدين القسام، مشاعل الثورة الإسلامية في فلسطين، وسوف تبقى روح القائد الشهيد، الوقود الحيّ للجهاد، إلى أن تتحرّر البلاد والعباد.

- ٢٨ -

قرأ إخوان القسام، ما خطّته شمس أصيل اليوم الذي صعدت فيه روح القائد الشهيد إلى بارئها، تشكو ظلم الغادرين من الصليبيين واليهود، وسمعوا صيحته المدويّة التي ملأت مسامع الزمان والمكان: (هذا جهاد.. نصر أو استشهاد).

وعندما عادوا إلى أحراش (يعبد) امتلأت خياشيمهم بأشذاء الدماء الثائرة.

وعندما زار الشيخ فرحان السعدي، صديقَ القائد الشهيد، (رشيد الحاج إبراهيم) في حيفا، متنكراً، ومتخفياً، وقرأ آخر كلمات القائد الشهيد، سارع إلى مغادرة حيفا، إلى جبال جنين ونابلس وطولكرم، ليعلن من هناك، أنَّ صيحة الجهاد التي أطلقها الشيخ القائد، ما تزال تنداح في أجواء فلسطين، تعانق النجوم، ثم تعود لتستثير نخوات الرجال...

حمل السعدي آخر كلمات خطّها يراع الشيخ:

(إني واثق من نفسي، وإن صوتي سيجد صداه في كلّ مكان، عند أول صيحة) وهو يهتف، كلما قرأها:

- لبيك يا شيخ عز الدين.. لبيك أيها القائد الشهيد..

وانطلق إلى المدن والقرى، وإلى النفوس الأبية التي أحبّت القائد

الشهيد، وأبدت استعدادها للجهاد تحت راية الإسلام، والاستشهاد من أجل الأرض المقدّسة التي باركها الله، وكان يلقى الاستجابة السريعة من كل من يعرض عليه صيحة القائد الشهيد، حتى صارت جبال جنين ونابلس وطولكرم وقراها وأوديتها وأشجارها وأحجارها تردّد صيحة القائد الشهيد، وتستنفر الرجال للجهاد والاستشهاد، كما تستنفر النخوات العربية، وتستجيش المشاعر الإسلامية لخوض معارك الكرامة والتحرير.

وكان الشيخ فرحان، لا تهدأ له حركة، ولا يرقأ له دمع، كلما خلا بنفسه، وتذكّر الأيام القليلة التي عرف فيها القائد الشهيد، فيهتف:

ـ يا لثارات (يعبد).. يا لثارات الشيخ الشهيد.

حتى إذا ما تمكّن تلاميذ القسام من الفتك بحليم بسطة الضابط العميل للإنكليز واليهود معاً، والذي طالما تعقّب القائد الشهيد دون أن يصل إلى طائل يطول الشيخ.. جاءه من يقول له:

ـ اهدأ يا شيخ فرحان، فقد قتلنا غريم الشيخ.

فردَّ عليه الشيخ فرحان:

ـ إنَّ دماء حليم بسطة ورأسه وأشلاءه لا تساوي عندي قلامة ظفر من أظافر القائد الشهيد.

فردَّ عليه الرجل القسّامي أبو أحمد:

ـ ولا عندنا.. ولا عند الله والناس، ولكن نريدك أن تهدأ قليلاً،

ريثما يهدأ الناس.

فقال الشيخ فرحان:

ـ لا.. لا نريد للثورة التي أوقد شعلتها القائد الشهيد أن تهدأ، فالثورة مستمرة.. وإذا حسب بعض الناس أننا نحن الذين أوقدنا شعلتها منذ سنتين فهو مخطئ..

الثورة ثورة القسام، وُلدت في أحراش (يعبد)، يوم أطلق الشيخ رصاصتها الأولى، وسوف تستمر إلى أن تعود فلسطين حرّة مستقلّة، عربية مسلمة.. لا.. لا أريد لأعصابي وأعصابك أن تهدأ.. وإذا...

فقاطعه الرجل القسامي بقوله:

ـ وإذا قتلنا (أندروز) هذا الحاكم الإنكليزي القذر؟.

فأشرق وجه السعدي، ربما لأول مرة منذ استشهاد القسام، وقال:

ـ عندئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وعندما عاد الرجل القسامي بعد بضعة أشهر، يحمل البشرى إلى الشيخ فرحان، بقتل ذلك الحاكم الإنكليزي، قال:

ـ الآن يطمئن قلبي إلى المسار الصحيح للثورة.. الآن تطمئن روح الشهيد القسام، وهي ترفرف فوق جامع الاستقلال بحيفا، وفوق أحراش يعبد، بين جنين والكرمل، وهي ترى الأحجار الكبيرة تُزال من الطريق.

وقال الشيخ فرحان:

ـ إذا متّ اليوم، أموت سعيداً، لأنَّ روحي ستعانق روح الحبيب..

ثم قال لذلك الشابّ القسامي:

ـ قل لإخوانك: حذار من ضياع صيحة القائد الشهيد.

ولم تمضِ أيام، إلا والشيخ الطاعن في السن، فرحان السعدي يَمْثُل أمام محكمة من محاكم التفتيش الإنكليزية اليهودية، فتحكم عليه بالإعدام، متهمةً إياه بالتخطيط والتنفيذ لسلسلة من العمليات التي فاجأتهم وأقضّت مضاجعهم، فهو العقل المدبّر لمجموعات القسام، بعد استشهاد القسام.

وكان الشيخ فرحان، ابن الرابعة والسبعين، صامداً كالطود، ثابت الجنان، وهو يخطو نحو حبل المشنقة.. كان يبتسم فيعجّب الناس لابتسامه، كانت روحه تحثّ خطواته نحو الأعواد المنصوبة التي وقفت فوقها روح القسام، تدعوه إليها مستبشرةً بقدومه، ليكون السائرون على درب الشهادة، متواصلين.. في كل يوم يُقدَّم شهيدٌ على رأس كوكبة من الشهداء القساميين..

ونظر الناس إلى الجسد المدلَّى، تحفّه أرواح إخوانه الذين سبقوه في أحراش (يعبد) وما بعدها، فزادهم إيماناً بسلامة الطريق المفضي إلى النصر والتحرير والجنة، وزادهم مضاءً وإصراراً على سلوكه، مهما غلت التضحيات...

وقال أبو إبراهيم الكبير لإخوانه (الدراويش) المجاهدين وهو يقودهم في معركة (يركا):

ـ ألا تسمعون صيحة القائد الشهيد؟.

إني لأسمع أصداءها تتجاوب بها بطاح فلسطين وجبالها..

(هذا جهاد.. نصر أو استشهاد).

ولا نامت أعين الجبناء.

وتناهت الصيحة إلى الشيخ عطية في جبال الكرمل وجنين، فتحفّز، وشدَّت من وتائر القائد أبي خالد في جبال الجليل ونابلس، واستدعت المجاهد الشيخ محمد الأشمر مع مئة من إخوانه الثائرين على الانتداب الفرنسي في غوطة دمشق، ليكون رجع الصدى لتلك الصيحة القسّامية الأبدية، بعد أن تسامع بها المجاهدون في بلاد الشام، والمجاهدون في أرض الكنانة، وهي تنتدبهم لخوض المنايا في الأرض المقدّسة التي باركها الله، وشرَّفها رسوله، وروَّتها دماء الجيل الفريد في التاريخ، وفتح عاصمتها أعدل حاكم عرفته الأرض، وحرَّرها بطل الأبطال صلاح الدين..

قال الراوي الذي كان يرصد الأحداث كأنه الشاهد عليها:

ـ وها قد جاءت دورة حضارية جديدة بمجيء الشيخ المجاهد القسام، وقد روَّتها دماء تلاميذه ومريديه من المجاهدين، الذين سلَّموا

الراية إلى العقل المتفتح، وإلى الرأس الذي يُحسن التفكير والتدبير، إلى الشيخ الذي تمرَّدت روحه المتوثبة، على جسده المشلول، فقاد كتائب القسام، ليكون الفتح والتحرير من فيوضات تلك الصيحة التاريخية :

ـ من هنا . . من جامع الاستقلال في حيفا . .

ومن فوق ذرى جبال جنين ونابلس وطولكرم . .

ومن قمم الدوح في أحراش يعبد . .

بدأت أسجل أنصع صفحات الجهاد .

لثورة القسام وإخوانه في فلسطين وسورية ومصر .

ولابنها الشرعي أحمد ياسين .

المؤسس لبنيان شيد من نفوس الرجال وأريحيات الأبطال، ممن هم على خُطا القسام، التي تومض للسُّراة في ليل الصحوة، صُوىً على الدروب المُفْضية إلى أوكار الهدّامين الغادرين من بني صهيون، لتدكّها الأيدي المتوضئة بنور الله .

تمَّت

* * *